الأوبرتات العالمية

تأليف

إدوار حليم

تقديم

د. سعاد عبد العزيز

الكتاب: الأوبرتات العالمية

الكاتب: إدوار حليم

تقديم: د. سعاد عبد العزيز

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

حليم، إدوار
الأوبرتات العالمية / إدوار حليم ، تقديم: د. سعاد عبد العزيز
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٩٧ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ١ – ٩١٥ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان   رقم الإيداع : ٤٩٨٤ / ٢٠١٩

الأوبرتات العالمية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

على سبيل التقديم

في كتابه عن "تاريخ المسرح" قال الناقد الفني الإيطالي "فيتو باندولفي": "يجوز لنا أن ننظر إلى المدائحيات على أنها أول أشكال المسرح الموسيقي، الذي قدر له أن يتحول إلى أوراتوريو (ابتهالية)، وإلى أوبرا مغناة؛ فالمدائحيات أوبرا ذات موضوع ديني، تقدم في الكنيسة عوضاً عن المسرح، كما أن التمثيليات الدينية مثل مسرحيات الأسرار، أو آلام المسيح، والمسرحيات الدنيوية انبثقت جميعها من جذور واحدة"

ومن المعلوم أن الأوبرا تطورت تاريخيّاً انطلاقاً من تلك المدائحيّات الدينية، حيث ظهرت بمبادرة من رجال الدين في الكنيسة الغربيّة جماعات منظمة، مهمتها تشكيل جوقة دينية لكل عيد، حيث يقام احتفال وفقا لتقاليد المدائحيين، وسميت هذه المجموعة من المؤلفات التي تنشدها هذه المجموعة باسم "المدائحيّات"، وكانت تعرض في البدء داخل الكنيسة، ويتم الحفل بأسلوب متعدد النغم، وبعض الجوقات، ثم جوقتان متناوبتان.

ولضرورات فنية تحولت المسرحية تدريجيا إلى باحات الكنائس، ثم إلى الساحات، وفي القرن الخامس عشر ظهرت المنصة بظهور التمثيليات الدينية، وكانت تقسم إلى أجزاء يسمى كل منها "البيت"، وتوضع عليها لافتة توضّح غايتها، وكانت الجنة في الأعلى، وفي إحدى الزوايا يفتح التنين فمه عن آخره، ليرمز إلى مدخل الجحيم، وكانوا يستعملون مقاطع

شعرية تتألف من ثمانية أبيات. يحكي كل مقطع منها جزء من القصة التي يدور حولها العرض.

وابتداء من القرن السادس عشر خرجت تلك العروض من ساحات الكنائس إلى قصور النبلاء، فاختلفت موضوعاتها ولم تعد دينية فقط، وظهرت عروض تتميز بالثياب الفاخرة، والديكورات الفخمة، كما ظهرت الفواصل الموسيقية لتملأ المساحات ما بين الفصول، وكانت ذات مضمون أسطوري، أو رمزي، كما كانت هناك ضوابط للحركة على المنصة تحتم على المشاركين في العرض عدم المشي على منصة العرض إلا عند الضرورة القصوى، وتعاليم النطق، واللفظ، وكذلك دراسة الإضاءة المناسبة للمنظور المرسوم، واستعمال المرايا، كما استعملت أوركسترا موسيقية، ودرست علاقات دخولها مع الكلام في أثناء العرض المسرحي.

وهكذا بدأت تتحدد تدريجيا ملامح فن الأوبرا بالشكل الذي نعرفه حاليا، باعتبارها أحد أشكال المسرح، حيث تعرض الدراما كليًا، أو بنحو رئيس بالموسيقى والغناء.

وقد نشأت الأوبرا في إيطاليا، وكانت جزءًا من الموسيقى الغربية الكلاسيكية. وفي أي أداء أوبرالي، تُعرض عدة عناصر من عناصر المسرح الكلامي مثل التمثيل، والمشاهد، والأزياء، والرقص في بعض الأحيان. وعادة ما تكون عروض الأوبرا في دار أوبرا، مصحوبةً بأوركسترا، أو فرقة موسيقية أصغر قليلاً.

وتعد المسرحية الأوبرالية "دافني" للموسيقار "جاكوبو بيري"، والتي عرضت لأول مرة في عام ١٥٩٧، أول أوبرا مسرحية، لكن جاكوبو بيري لم يكن المؤلف الأصلي لها، فصاحبها هو «كلاوديو مونتيفيردي، (١٥٦٧-١٦٤٣) الذي لا تزال أعماله تعرض حتى اليوم. لكنه كتب موسيقاها فقط أما العرض في مجمله فيعود إلى بيري الذي أضاف أيضا لموسيقى مونتيفيردي، لكن هذا العرض كان بمثابة البروفة أما أول أوبرا عالمية رسمية فقد عرضت بتاريخ ٦ أكتوبر ١٦٠٠م.

ذيوع وانتشار

في القرن الثامن عشر خرجت الأوبرا من إيطاليا إلى بقية أنحاء أوروبا، لكن استمرت سيطرة الأوبرا الإيطالية على سواها، مما ساعد على جذب مؤلفين أجانب مثل هاندل، في ذلك الوقت، وكانت أوبرا سيريا، أو الأوبرا الجدّية، أو الدرامية، أكثر أنواع الأوبرا الإيطالية رفعةً في المستوى، وفي أواخر القرن الثامن عشر، كان موتسارت من أكثر الشخصيات تأثيرًا على الأوبرا آنذاك، حيث ابتدأ بأوبرا سيريا، وتعد أوبرا داي زوبرفلوت أو المزمار السحري من أشهر أعمال موتسارت.. وتعد أيضًا من العلامات الواضحة للتاريخ الألماني في الموسيقى

وكانت موسيقى موتسارت بداية تنوع موضوعات الأوبرا ومدارسها، وظهرت روائع خالدة في هذا المجال، منها الرومانسي مثل "تريستان وايزولده وبارسيفال" لفاجنر، والواقعي مثل "بوريس جودونوف"

لموسورجسكي، و"كارمن" لجورج بيزيه، والرمزي مثل "بيلياس وميليزاندا" لديبوسي، وكان منها الحديث مثل "فوزيك" لبيرج".

وفيما يتعلق بأنواع الأوبرا ، فقد قام الباحثون بتقسيمها إلى نوعين رئيسيين:

أولهما الأوبرا الفخمة Grand Opera وتقوم بشكل رئيسي على الغناء كما في أوبرا عايدة. وفيها يتحقق العمل الفني المتكامل والشمولي لاستخدامها الموسيقى والشعر على المسرح

وثانيهما ما يعرف بالأوبرا الهزلية Comic Opera وفيها يمتزج الغناء بالحوار المسرحي، ومنها انبثقت الأوبريت Operetta وهي تجمع ما بين الغناء والحوار، وغالباً ما يكون موضوعها عاطفياً خفيفاً مرحاً مثل أوبريت العشرة الطيبة لسيد درويش.

وهذا التقسيم بين الجد والهزل ليس حاسما وحده، فقد تأتي الأوبرا الهزلية بعيدة عن الضحك، والأوبرا الفخمة حافلة بالمواقف الهزلية، فما يجمعهما هو انتسابهما إلى الدراما الموسيقية الغنائية، وما يميز بينهما هو مساحات استعمال الحوار والغناء

فكرةً خاطئة

هذا وقد شاعت لدى الناس فكرةً خاطئة عن الأوبرا، باعتبارها ضجيجٌ وصريخ غامض مبهم غير مفهومٍ وموسيقى صاخبة غير مفهومة. ما

جعلها وقفاً على شريحة معينة من الناس. ومردّ هذا لأسباب لعل من أهمها ما يرتبط ببدايات ظهور الأوبرا واقترانها بنوع معين من الجمهور ارتاد الأوبرا دون أدنى ثقافة عنها، وبالتالي تحولت حفلة الأوبرا إلى مكانٍ للترفيه، والتسلية، دون الاهتمام بما يجري على خشبة المسرح. وأما السبب غير المباشر فهو ظهور فانكر الأوركسترالي في القرن التاسع عشر، والذي سخَّر الاوركسترا في إنتاج الأوبرا. ومع أن هذه الأوبرا لم تكن متوازنة إلا أنها غيّرت من مسار الأوبرا فهناك مؤلفون يحاولون تقليده ما أدى إلى ظهور اتجاهات جديدة تبنّت أسلوبه. ويمكننا الإضافة إلى هذه العوامل موضوع اللغة، حيث كُتبت معظم الأوبرات بالألمانية، والإيطالية، والفرنسية مما أوجد قدرا من الصعوبة في التواصل ما بين الجمهور وفن الأوبرا.

أوبرات شرقية

شهدت الصين نشوء نوع مختلف من الأوبرا لم يتأثر بالأوبرا الإيطالية، وهو مغاير لها، وهي أشهر فن تُعرف به المسارح الصينية؛ فهو فن فلكلوري ينبع من حياة عامة الناس، ولكل قصة شخصياتها. وللماكياج والأزياء والألوان مدلولات رمزية في هذا الفن التقليدي فاللون الأبيض مثلاً يعكس شخصية غدارة وشريرة، والأسود يدل على الشجاعة، أما الأحمر فيدل على الإخلاص، وعادة ما تكون هذه الألوان مبهرة ذلك أن أوبرا بكين كانت تؤدي في ضوء مصابيح زيتية ضعيفة الإضاءة، أما الرسومات فهي تدل على مكانة الشخصية، التنين مثلاً يدل على مكانة

عالية للرجل، كذلك الطاووس بالنسبة للمرأة، ولأوبرا بكين تقاليدها الخاصة في الفرجة فأن يشرب الجمهور الشاي ويتناول بعض المكسرات ويثرثر أثناء العرض هذا طبيعي، والممثل لا يتأثر بذلك لأنه يندمج مع الشخصية ويذوب فيها، فلا يشعر بما يحدث حوله. وممثلو أوبرا بكين يتمتعون بمهارات فنية عالية ومتنوعة، فهم يتقنون الغناء الأوبرالي بصوت عال جداً، ذلك أن العروض كانت تؤدى في الماضي في الهواء الطلق، كما يتقنون الإلقاء والقراءة التعبيرية والتمثيل والرقص، ناهيك عن فنون القتال الصينية في بعض الأدوار والحركات البهلوانية.

أما بالنسبة لتعريب الأوبرا أو دخولها في الأقطار العربية فيذكر مؤرخو هذا الفن أن العرب لم يعرفوه إلا في القرن التاسع عشر حيث شهدت بيروت ودمشق وحلب والقاهرة والإسكندرية قدوم فرق إيطالية وفرنسية تعرض مسرحيات غنائية. كما أتاحت رحلات بعض التجار والأشخاص إلى روما ومدن أوربية أخرى حضور بعض العروض الأوبرالية من المسرح الغنائي مما دفع مارون النقاش الذي كان يتردد على إيطاليا إلى القيام بمغامرته المسرحية الريادية وإدخال الغناء عليها للتذويق الجمالي نزولا عند رغبة الجمهور. كما شهد القرن التاسع عشر مولد المسرح الغنائي العربي بشكله البسيط على يد أبي خليل القباني، وقد خلفه تلميذه الشيخ سلامة حجازي وفرقته حيث قدم مسرحيات يتخللها الغناء منها: شهيدة الغرام وروميو وجولييت، ثم جاء سيد درويش ليقدم أوبريتات مثل: شهرزاد، الباروكة، العشرة الطيبة، وأيضا الموسيقار الحلبي كميل شمبير (١٨٩٢- ١٩٣٤م) الذي درس الموسيقى الغربية في إيطاليا وعمل في

الأوبرا في الولايات المتحدة لفترة قبل أن يعود إلى حلب التي هجرها من أجل فنه إلى مصر في عام ١٩١٤م حيث عمل مع فرقة نجيب الريحاني وكتب له ثلاث مسرحيات بأسلوب الأوبريت وساهم بإبراز شخصية كشكش بك ويختلف مسرحه عن مسرح القباني في أنه درس فن الأوبريت دراسة علمية وميدانية، وفي أن الموسيقى والغناء لديه هما الأساس في العرض.

ولقد استهوت الأوبريت كل من المسرحي العربي والجمهور معاً أكثر من الأوبرا، وبالرغم من أن ما أتى به القباني ومن تلوه هو فنٌ لا تتوفر فيه شروط الأوبريت تماماً بمفهومها الغربي، إلا أنه قدَّم مطبخاً عربياً مشرقياً للأوبريت، فيه الإنشاد، والموشحات. وهي للأسف تنتمي للنوع الثاني من الأوبرا وهو الهزلية Comic Opera.

وقد ارتبطت قصة إنشاء دار للأوبرا في مصر بافتتاح قناة السويس في عهد الخديوي إسماعيل الذي كان شغوفا بالفنون ولذلك سميت بالأوبرا الخديوية. وقد أراد الخديوي إسماعيل أن تكون دار الأوبرا الخديوية تحفة معمارية لا تقل عن مثيلاتها في العالم، فكلف المهندسين الإيطاليين أفوسكاني وروسي بوضع تصميم لها يراعى فيه الدقة الفنية والروعة المعمارية، واهتم الخديوي إسماعيل بالزخارف والأبهة الفنية فاستعان بعدد من الرسامين والمثالين والمصورين لتزيين الأوبرا وتجميلها.

وقد تم قصة من صفحات التاريخ المصري القديم تصلح نواة مسرحية شعرية، وقد قام بنظم شعرها الشاعر الإيطالي جيالا وعهد إلى الموسيقار فيردي بوضع موسيقاها، فكانت الأوبرا الخالدة "عايدة" بموضوعها الوطني المصري وأغانيها الجياشة وموسيقاها الرائعة من نتاج العبقريات الثلاث.

وتم افتتاح الأوبرا الخديوية في الأول من نوفمبر ١٨٦٩ مع احتفالات قناة السويس وعلى الرغم من اهتمام الخديوي إسماعيل ورغبته الأكيدة في أن تفتتح دار الأوبرا الخديوية بعرض أوبرا عايدة حالت الظروف دون تقديمها في موعد الافتتاح وتم افتتاح الأوبرا الخديوية بعرض ريجوليتو. وهي الأولى في قارة إفريقيا وكان مسرحها قبل احتراقه في ١٩٧١ واحدا من أوسع مسارح العالم مساحة وأكثرها فخامة.

وهذا الكتاب الذي يعاد نشره اليوم هو كتاب "الأوبريتات العالمية" للكاتب إدوار حليم، وكان بداية لسلسلة أصدرها الكاتب نفسه بعنوان "كتب للثقافة الخالدة"، في خطوة رائدة منه لتقريب مفاهيم ومعاني الفنون والآداب الحديثة للقارىء في ذلك الوقت (بداية عقد الخمسينات من القرن العشرين)، وترجع أهمية الكتاب لكون صاحبه اكتفى في مطلع كتابه ببضع صفحات للتعريف بالفن وتاريخه، أما جل الصفحات فخصصها لأشهر الأوبرات العالمية ومنها أوبرا عايدة، وكارمن، وحلاق إشبيلية، ومدام بترفلاي، وهكذا امتدت القائمة لتشمل أربعة عشر أوبرا من أشهر وأهم الأوبرات، اهتم المؤلف بأن يقدم في كل فصل من فصول كتابه

ملخصا لإحداها، مبينا مكان وزمان عرضها الأول وقيمتها بالنسبة لذلك الفن.

فهدف الكاتب إدوار حليم كان تقديم الأوبرات للقارىء كمثال لفن رفيع يبتعد عنه العوام لما أشيع عن صعوبة فهمه، فكان هذا الجهد محاولة رائدة لتيسير الفن النخبوي واتاحته للعوام ليسهل تذوقه والتعاطي معه.

د. سعاد عبد العزيز

تمهيد

كانت الأوبرا فيما مضى من الفنون الارستقراطية، لكنها ليست كذلك اليوم، فقد تولت السينما نقل أهم الأوبرات على شاشتها الفضية، وقام الراديو بتقديم هذه الروائع لجمهور المستمعين، كما نشرت الصحف والمجلات قصص الأوبرات باللغات المختلفة.

وقد تكون أنت من أتيحت لهم فرصة التعرف على بعض هذه المسرحيات الغنائية، سواء عن طريق المسرح، أو السينما، أو الراديو، أو الصحف، لكنك لم تصادف حتى الآن الكتاب الذي يشرح لك هذا الفن، ثم يقدم إليك هذه الأوبرات باللغة العربية.

من أجل ذلك أخرجت لك هذا الكتاب، فأنت ستجد فيه مقدمة عن فن الأوبرا وتطوره. فإذا فرغت منها قرأت طائفة من أشهر الأوبرات التي طالما سمعت أو قرأت عنها دون أن تتاح لك فرصة التعرف عليها.

وإني اعتزم أن أقدم لك قريبا الجزء الثاني من «الأوبرات العالمية» الذي سيضم مجموعة أخرى من هذه المسرحيات الغنائية التي تعتبر بحق ركنا مهما من أركان الثقافة العالمية.

إدوار حليم

الأوبرا

ليست الأوبرا – أو المسرحية الغنائية – من الكلمات التي يسهل تعريفها، فمعناها في الأصيل «لون موسيقى من الدراما، يتألف من ألحان وأشعار وأناشيد، يتخللها موسيقى ومناظر وتمثيل». ومن أجل هذا المزيج ناهض فريق من الفنانين الأوبرا بحجة أنها «فن مولد غير خالص». فهم يقولون أنها لم تصل بالتمثيل إلى مستوى المسرحية، ولا بالموسيقى إلى مستوى السيمفونية مثلا. أما أنصارها فيتخذون من نفس هذا النقد سببا للإعلاء من شأنها. فهي في رأيهم مزيج رائع متناسق من الشعر والتمثيل والرقص والغناء والموسيقى جميعا.

وهكذا فإن نشأة الأوبرا لم تكن تعني ظهورها لون جديد في سماء الفن، بل على الأصح كانت تعنى اندماج بضعة عناصر مستقلة في بعضها البعض، ويرجع تاريخ ذلك إلى عام ١٦٠٠ عندما مثلت في فلورنسا أوبرا «إيريديس» Euridice للموسيقي «بري» Peri، ضمن برامج الاحتفال بزواج الملك هنري الرابع ملك فرنسا. ولو أن جمهور اليوم هو الذي كان قد شاهدها في ذلك الوقت لما استساغها على الإطلاق. ذلك إنها لم تكن في حقيقتها أكثر من تلاوة بعض الأشعار، يقطعها بين حين وآخر نفر من المنشدين، تصحبهم بعض الآلات الوترية كالقيثارة والطنبور، ولكنها كانت مع ذلك أول محاولة في طريق الأوبرا.

ذلك هو السلم الواهي الذي ارتقاه نفر من سادة القوم في فلورنسا، وعلى رأسهم الكونت جيوفاني باردي Giovanni Bardi ليصلوا بذلك اللون من الغناء إلى درجة تبلغ مستوى مسرحيات قدماء الإغريق. ولما لم يكن هناك أي أثر باق للموسيقى التي كانت تتخلل مسرحيات قدماء الإغريق، كان على الموسيقيين في ذلك الوقت أن يسلكوا طريقا آخر. فيمموا شطر ألحان الكنيسة التي كانت قد بلغت الذروة في الإتقان على يد «بالسترينا» Palestrina الذي توفي عام **١٥٩٤**. وفي نفس هذا العام قام أحد أولئك الموسيقيين الفلورنسيين ويدعى «أوراتزيو فيكي» Orazio Vecchi بوضع بضعة أناشيد تدور حول موضوع دنيوي، ويقوم بالغناء فيها على الطريقة الإكليركية مغنون يرتدون زيا خاصا. وكان يمكن أن تعتبر تلك الأناشيد في مجموعها، أو تلك الأوبرا التي أطلق عليها مؤلفها اسم «أمفيبارناسو» Amsiparnasso– أول أوبرا في العالم، لولا خلوها من عنصر التمثيل.

وكانت الأوبرا طوال القرن السابع عشر تصطبغ بالصبغة الارستقراطية، فكان «كلوديو مونتيفري» C. Monterved كما كان «بري» من قبله يقوم بكتابة أوبرات خاصة للاحتفالات الملكية، أو أوبرات تاريخية.

وتلاحقت التطورات على الأوبرا في السنوات التي تلت ذلك، ففي نابولي، تلك المدينة التي طالما حبت مغنيها صوتا طبيعيا جميلا قام

«أليسندرو سكارلاتي» Alessandro Scarlatti يؤكد من أهمية الصوت في الأوبرا ويوليه اهتماما خاصا.

كما شهدت فرنسا علما بارزا من إعلام الأوبرا هو «جان لالي» Jean Luly الذي كان قد رحل إلى قصر الملك لويس الرابع عشر في خدمة إحدى الأميرات الفرنسيات. فقد علق هذا المؤلف الموسيقى أهمية كبيرة على مناظر الأوبرا وتناسقها. وقد ساد هذا الاهتمام نتيجة لذلك مسارح الأوبرا في فرنسا لمدة قرنين كاملين. كما أنه كان أول من الأوبرا في فرنسا لمدة قرنين كاملين. كما أنه كان أول من ادخل على الأوبرا «الافتتاحية» أو الموسيقى التمهيدية Ouverlure هذا إلى أنه أوجد تطورا ظاهرا على فن الباليه

أما «جان راموه» Jean Rameau فقد اهتم بالهارموني – أي تناسق الأنغام – وبقدرة الموسيقى على التعبير، وقد بلغ من اهتمامه الزائد بعنصر الموسيقى، أن فقدت عناصر الأوبرا الأخرى– وعلى الأخص عنصر التمثيل– العناية الواجبة بها.

وبينما كانت الأوبرا تزدهر في القصور الملكية في فرنسا، كان رواد الأوبرا في إيطاليا يتزايدون في اطراد مستمر، فما أن أشرف القرن السابع عشر على نهايته، حتى كانت توجد في مدينة البندقية وحدها إحدى عشرة دارا للأوبرا.

إلا أن عنصر التمثيل الذي كان يؤكده الفلورنسيون في بادئ الأمر، لم يلبث أن أحنى رأسه لعنصر جديد طغى عليه وهو عنصر الغناء.

فقد أتى القرن الثامن عشر وكان كل ما يعنى به الموسيقيون الإيطاليون هو إبراز صوت المغني واستغلاله في التأثير على جمهور المستمعين. وأصبحت الأوبرا في ذلك العصر مجرد عرض لمقطوعات غنائية لا تربطها إلا وحدة الموضوع. أما وحدة الموسيقى ووحدة الدراما– وهما اللتان خلقتا الأوبرا في الأصل– فقد طغى عليهما الاهتمام بالتأثير الصوتي إلى حد بعيد.

ولم تقتصر مدرسة الأوبرا في تلك الفترة على نابولي وحدها وهي المدينة التي نشأت فيها الأوبرا وترعرعت، وإنما كان هناك في كل عاصمة في أوربا، مؤلف موسيقي إيطالي، أو أي موسيقي درس في إيطاليا دراسة كافية ليعهد إليه بالإشراف على دار الأوبرا فيها.

وكان «كرستوف جلوك» Christoph Gluck واحدا من أولئك الموسيقيين الذين درسوا في إيطاليا وكتبوا أوبرات باللغة الإيطالية نفسها. وقد استطاع «جلوك» أن يقطع شوطا بعيدا في سبيل تحرير الأوبرا من رداء التكلف الذي لبسته طوال ذلك الوقت.

وإلى جانب الإصلاح الذي بدأه «جلوك»، قامت هناك حركة أخرى في غرب أوربا. وكان ذلك في عصر تفتحت فيه أذهان الناس على حقائق جديدة لم يكن لهم علم بها من قبل. فقد كان الكاتب الفرنسي المعروف

«جان جاك روسو» Jean Jacques Rousseau– إبان الثورة الفرنسية– يؤكد من أهمية الطبيعة ويعلي من شأن الإنسان. كما أن «بومارشيه» Beaumarchais كتب مسرحية فكاهية أعلى فيها من شأن الطبقة المتوسطة على حساب طبقة النبلاء. ومن الطبيعي أن تترك هذه الاتجاهات الاجتماعية أثرا ظاهرا في الفن بما في ذلك فن الأوبرا، فقد أخذ «موزار» Mozart- الموسيقي النمساوي المشهور– مسرحية «بومارشيه» المسماة «زواج فيجارو» Le Mariage de Figaro ووضع لها ألحانا على الطريقة الإيطالية.

وقد قطع «موزار» شوطا أبعد مما قطعه سلفه «جلوك» في أن يجعل الموسيقى وسيلة للتعبير عن الأوبرا وليست غاية في حد ذاتها، ونستطيع أن نعتبر تلك الفترة بداية عهد الموسيقى المسرحية.

ولكن حتى في عهد «موزار» لم تستطع الأوبرا أن تنفض عنها غبار التصنع الذي علق بها فترة غير وجيزة من الزمن، عندما كان إبراز صوت المغني هو كل ما يعنى به الموسيقيون. وأتى القرن التاسع عشر على إيطاليا فكانت الأوبرا فيها حمى أصابت الإيطاليين، غير أنه لم تكن هناك تلك المثل التي كان يدعو إليها «جلوك» و«موزار»، وإنما كل ما كان هناك هو تلك المرونة الطبيعية التي وهبتها إيطاليا لمغنيها، والموسيقى الساحرة التي ألهمت بها مؤلفيها الموسيقيين. ومن الذين لمع نجمهم في تلك الفترة «تشيما روزا» Cimarosa و«دونيزيتي» Donizette «وبلليني» Bellini و«روسيني» Rossini.

وكانت فرنسا في ذلك الوقت تولي مناظر الأوبرا عناية فائقة، وبخاصة الأوبرا التاريخية. فمن الواضح أن ذلك اللون من الأوبرات كان يستلزم جوا خاصا تسوده العظمة والرهبة وتتخلله الأناشيد الحماسية. كما أنه وجد هناك اهتمام خاص بعنصر الباليه.

أما في ألمانيا فيمكن تتبع نمو الأوبرا فيها منذ عام ١٦٩٥ حين افتتحت أول دار للأوبرا في مدينة هامبورج. وبدلا من أن تقدم فيها أوبرات كالتي كانت تقدم على مسارح الأوبرا في إيطاليا، كانت تختص بلون جديد معين يسمى «سينجسبيل» Singspiel، وهو يشبه إلى حد كبير «الأوبريت» التي نعرفها اليوم. وكانت السنجسبيل هذه تتكون من عدة مقطوعات موسيقية منوعة يربطها ديالوج خاص. وكان التمثيل فيها يميل في العادة إلى المرح والهدوء أكثر مما يميل إلى الصخب. ومن الأمثلة الواضحة لأوبرات تلك الفترة، أوبرا «فيديليو» Fidelio لبيتهوفن Beethoven التي كان لها تأثير كبير على فن الأوبرا في ألمانيا. ومن الذين لمع نجمهم أيضا في ألمانيا الموسيقى المشهور «رتشارد فاجنر» Richard Wagner.

ونعود إلى إيطاليا لنجد أن ازدهار الأوبرا فيها على يد «روسيني» و«دونيزيتي» قد تلته روح جديدة تغلغلت في جميع نواحي الحياة في إيطاليا. فقد كانت هناك حركة تنادى بتحرير البلاد من نير الاستعمار النمساوي. وبدأت تلك الروح الجديدة تسري في عروق الأوبرا الإيطالية فتجعلها تنبض في قوة وحرارة لم تكن لتعرفها أوبرا «حلاق أشبيلية» مثلا التي تتميز بالرقة والهدوء. وأصبحت دار الأوبرا مكانا يتنفس فيه أولئك

الذين يرومون الحرية. وكان «فردي» Verdi أكبر من حمل لواء الثورة عن طريق الموسيقى، حتى أن إحدى أوبراته وهي «ريجوليتو» Rigoletto اضطر الرقيب أن يجرى فيها بعض التعديل. إلا أن الجمهور لم يكن ليخفى عليه ما قصده «فردى» من تلك الأوبرا.

ومن الطبيعي ألا تصل الأوبرات التي وضعت في تلك الظروف القاسية إلى درجة مقبولة من الكمال والإتقان، فقد كانت أوبرات «فردي» الأولى تعتمد أكثر ما تعتمد على الموضوع المثير والقصة التي تلهب العاطفة. أما الاهتمام بالموسيقى فلم يكن له شأن كبير. غير أن قدرة «فردي» الفنية لم تلبث أن نضجت فيما بعد، وأصبحت أوبراته «عايدة» و «فولستاف» نماذج يحذو حذوها المؤلفون الموسيقيون.

عايدة .. جيوسيبي فردي

Giuseppe Verdi AIDA

في عام ١٨٦٩ تلقى الموسيقي الإيطالي المشهور «جيوسيبي فردي» Giuseppe Verdi عرضا سخيا من الخديوي إسماعيل لوضع ألحان أوبرا جديدة لدار الأوبرا المصرية احتفالا بافتتاح قناة السويس. وقد اشترط العرض أن تكون الأوبرا ذات طابع مصري، وتصادف أن كان في مصر أحد علماء الآثار الفرنسيين المشتغلين بدراسة تاريخ مصر القديم، فوضع قصة الأوبرا. ثم نظم كلماتها «كميل دي لوكل» Camille du Locle. وأخيرا نظمها شعرا بالإيطالية «أنطونيو غزلانتزوني» Ant nio Ghislanzoni. وقد قدمت لأول مرة على مسرح الأوبرا المصرية عام ١٨٧١، ثم على مسرح «لاسكالا» La Scala بميلانو ١٨٧٢.

شخصيات الأوبرا:

رمفيس: كبير الكهنة بمعبد ايزيس Ramfis

راداميس: قائد الحرس المصري Radamis

أمنيريس: ابنة فرعون ملك مصر Amneris

عايدة: أسيرة حبشية وابنة ملك الحبشة Aida

فرعون: ملك مصر Pharaoh

أموناسرو: ملك الحبشة ووالد عايدة Amonasro

رسول– كهنة– كاهنات– جنود– وزراء– أسرى أحباش

زمن الأوبرا: عهد الفراعنة

المكان: ممفيس وطيبة

الفصل الأول

المنظر الأول- القاعة الكبرى في قصر فرعون بمدينة ممفيس

قبل أن ترفع الستار عن الفصل الأول، تصور لنا المقدمة الموسيقية الصراع العنيف الذي سنشاهده بعد قليل، فإن «عايدة» هي قصة الصراع الرهيب بين الحب والواجب.. قصة الضابط المصري الشاب «راداميس» الذي وهب حياته لخدمه بلاده، ومنح قلبه لأسيرة من أعدائه!.. فقد أحب «عايدة» الحبشية التي أسرها الجيش المصري في إحدى معاركه مع الأحباش.

وترتفع الستار، فإذا «رمفيس» – كبير الكهنة – يتحدث إلى الضابط «راداميس» بين أروقة القصر:

رمفيس: لقد بلغني أن الأحباش يهددون طيبة من جديد، وقد اختارت الإلهة «ايزيس» قائدا شابا شجاعا ليصد عدوانهم. وها أنذا ذاهب إلى الملك لأعلن اسمه إليه.

ويغادر الكاهن المكان، فيبقى راداميس غارقا في تأملاته وأفكاره. ويحدث نفسه مغمغما: «ماذا لو وقع الاختيار علي؟!.. إنني سوف أعود إلى حبيبتي عايدة مكللا بالغار!»

ويظل راداميس تائها في أحلامه، فلا يقع بصره على «أمنيريس» – ابنة الملك – التي تدخل وتتأمله عن قرب. إنها تحبه، ولكنها تغار عليه وتخشى أن يكون قلبه لسواها:

أمنيريس: ما الذي يبعث فيك الابتهاج هكذا؟.. إنها لمحظوظة تلك المرأة التي تستطيع أن تدخل عليك كل هذه السعادة!

وهنا يحدثها راداميس عن آماله وطموحه، دون أن يتبين أن كانت قد لاحظت عليه أن واقع في حب جاريتها الحبشية عايدة.

وفي هذه اللحظة تدخل عايدة وقد أفزعتها أنباء الحرب المرتقبة. ولكن أمنيريس تخفي مشاعرها لتقف على حقيقة العلاقة بين راداميس وغريمتها الأسيرة عايدة.

وينخرط الثلاثة في غناء ثلاثي «تريو» مؤثر، نتبين خلاله ما يدور في نفس كل منهم. فإن عايدة تعبر عن حبها الدفين، وأمنيريس عن غيرتها الضاربة، وراداميس عن خوفه من أن تفسد خططه الأميرة العاشقة.

وحالما يظهر الملك وقد أحاط به عدد هائل من الوزراء والحراس والأتباع. ويعلن رسول الملك قائلا:

«لقد أغار الأحباش على بلادنا، وهم في طريقهم إلى طيبة بقيادة ملكهم أموناسرو».

وتحبس عايدة صرخة كادت تفلت من بين شفتيها، فإنها وحدها تعلم الحقيقة الأليمة، وهي أن أموناسرو ملك الأحباش ليس سوى أبيها، وانه قادم ليحررها من الأسر.

ويتعالى صوت الشعب مطالبا بالحرب، فيعلن الملك أن الإلهة «إيزيس» قد اختارت الضابط راداميس ليكون قائدا للحملة المصرية، ثم يأمره بأن يتوجه إلى معبد «فولكان» ليتسلم منه «السلاح المقدس»، في حين تناوله أمنيريس «العلم الملكي» وتنشد له مشجعة:

«فلتعد لنا ظافرا!»، فيردد دعاءها عايدة وجماعة المنشدين.

ويخرج الجميع، فتبقى عايدة بمفردها تحدث نفسها بصوت متهدج حائر:

«لقد تمنيت لحبيبي أن يعود ظافرا.. أن ينتصر على والدي وإخوتي الذين يحاربون لإعادتي

إلى بلادي!.. أيتها الآلهة، ارحمي شقائي ودعيني أموت!»

ثم يرتفع صوتها بغناء شهي حزين.

المنظر الثاني: معبد «فولكان» بمدينة ممفيس

يرفع الستار عن المعبد وقد أضيئ بأنوار غريبة غير ظاهرة وأخذ دخان البخور يتصاعد حول المذبح الذي وقف أمامه كبير الكهنة «رمفيس» ينتظر قدوم راداميس. ويسمع صوت إحدى الكاهنات وهي تبتهل إلى «الإله بتاح القدير». ثم يبدأ رمفيس وكهنته يرتلون أناشيدهم الشجية، في حين تدور الكاهنات حول المذبح في خشوع وابتهال.

ويصل راداميس، ثم يقترب من المذبح حيث يضع رمفيس فوق رأسه غطاء من الفضة ويسلمه سيفا:

رمفيس: لقد عهدت إليك الآلهة بمصير البلاد. وهذا السيف المقدس الذي تحمله يداك، يجب أن يجلب الموت القاصف للأعداء

ثم تدوي أركان المعبد بصيحات النصر!

الفصل الثاني

المنظر الأول - غرفة أمنيريس بقصر الملك

تجلس الأميرة أمنيريس وحولها وصائفها يصلحن من زينتها استعدادا للاحتفال بعودة راداميس منتصرا من القتال. وإذ تظهر عايدة، تأمر الأميرة وصائفها بالانصراف ليخلو لها الجو للتحدث إلى الأسيرة الحبشية، لعلها تستطيع أن تستدرجها لتبوح لها بمكنون قلبها:

أمنيريس: إنني صديقتك يا عايدة، فاطلبي مني ما تشائين!

عايدة: وكيف يهنأ لي عيش وأنا بعيدة عن وطني، لا أعرف ماذا وقع لأبي وإخوتي؟!

فتقول لها الأميرة في خبث:

أمنيريس: إن الزمن كفيل بان يكلأ جراحك، والحب أكثر منه قدرة على ذلك!

وكأنما ضربت هذه العبارة أوتار قلب عايدة، فتشرع في الغناء. وهنا تتأكد أمنيريس من صدق حدسها، ولكنها تحاول أن تجري عليها اختبارا آخر فتزعم لها أن راداميس قد مات في المعركة!

فتجهش عايدة بالبكاء ثم تقول في أنين موجع: «إذن، سأبكى إلى الأبد!»

وتثور أمنيريس وتعلن صائحة:

"لقد اكتشفت سرك!.. إن راداميس ما زال على قيد الحياة، وغريمتك في حبه هي أنا ابنة الفراعنة!" وتسمع أناشيد النصر تدوي في الخارج، فتصيح أمنيريس مهددة متوعدة، في حين تبتهل عايدة إلى الآلهة أن تشملها برحمتها ورعايتها.

المنظر الثاني- مدخل مدينة طيبة

يغص مدخل المدينة بأفراد الشعب، ويمر موكب النصر بمعبد آمون ثم يتقدم أمام قصر الملك. وحالما يظهر الملك وحوله حاشيته ثم يعتلي العرش. وتتقدم منه أمنيريس وقد أحاطت بها الوصائف ومن بينهن عايدة، فتجلس بجواره.

وتمر القوات المصرية في عرض رائع أمام شرفة القصر، بينما تعزف الموسيقى أنغام النصر. وأخيرا يظهر راداميس بين صيحات الجمهور المدوية وقد استقل عربة فاخرة، وإذ يتقدم من العرش يعانقه الملك قائلا:

الملك: أيها المنقذ، إن مصر تحييك! فلتتقدم الآن من ابنتي لتمنحك «شارة النصر»!

وينحني راداميس أمام الأميرة فتتوج جبينه بإكليل الغار. ويواصل الملك قائلا:

الملك: اطلب مني ما تشاء أيها المحارب الشجاع، فسوف أمنحك كل ما تطلب في هذا اليوم!

راداميس: إنني أطلب من مولاي إن يأمر بإحضار الأسرى إلى هنا.

ويتقدم الأسرى الأحباش مصفدين بالأغلال، فتذهل عايدة عندما تلمح أباها بينهم. فتتقدم منه وتعانقه، ولكن «أمونا سرو»– ملك الحبشة– يطلب منها ألا تفصح عن شخصيته. وفي دهاء وسعة حيلة يتوسل إلى فرعون ملك مصر قائلا:

أموناسرو: لقد قتل ملكنا، وأصبحت أنت صاحب الكلمة العليا، فاشملنا برحمتك!

وتنضم عايدة وبقية الأحباش إلى أموناسرو في توسلاته لملك مصر. لكن الكهنة يرفضون طلبهم في إصرار، فيذكر راداميس الملك بوعده قائلا:

راداميس: إنني أطلب الحياة والحرية للأحباش!

وأخيرا يقترح رمفيس– كبير الكهنة– حلا وسطا: أن يبقى «أموناسرو» رهينة في أيدي المصريين. ويوافق فرعون على هذا الاقتراح فيعلن قائلا:

فرعون: إنني أوافق على هذا الرأي، ولكي نحتفل بالسلام، سأمنح راداميس يد ابنتي أمنيريس!

وتتعالى صيحات الابتهاج من الشعب عندما ينزل الملك من على العرش، وتتبعه أمنيريس في نشوة وزهو وبصحبتها راداميس، في حين ترتمي عايدة بين أحضان أبيها الأسير وتنخرط في البكاء.

الفصل الثالث

المنظر - ضفاف النيل

يلقي القمر أشعته الفضية الناعسة على ضفاف النيل، وينبعث من المعبد ترتيل الكهنة الخافت الحزين. ويدنو قارب من الشاطئ، ثم ينزل منه رمفيس وأمنيريس. ويقود كبير الكهنة الأميرة إلى داخل المعبد لتمضي عشية زفافها في الصلاة. ولا يكاد الاثنان يدخلان حتى تظهر عايدة وقد ألقت على وجهها خمارا كثيفا. لقد أتت لتلقى حبيبها راداميس سرا.

وتتساءل الأسيرة الحبشية: «ماذا عسى راداميس أن يقول؟.. أن كان سيأتي ليبثني الوداع، فسوف أنهى حياتي في أعماق النيل!».

ثم تشرع في غناء شهى رخيم وقد تملكها حنين غامر إلى بلادها:

«أيتها السماء الجلواء المشرقة، وأيتها التلال الزاهرة السامقة، وأيها النسيم العليل الساهم.. إنني لن أراك أبدا»

وفجأة تسمع وقع أقدام، وحالما ترى أمامها أباها الذي أدرك سر شقائها فجاء إليها بخطة لتخليصها هي وحبيبها. ويحدثها أموناسرو قائلا إن الأحباش يستعدون لرد عدوان المصريين، وكل ما يحتاجون إليه هو معرفة الطريق الذي سوف يسلكه الجيش المصري في هجومه عليهم، وما على عايدة إلا أن تعرف ذلك من حبيبها راداميس!

عايدة: إنك تطلب مني أن أخدع الرجل الذي أحبه... إنني لا أستطيع!

ويذكر أموناسرو وابنته بالمصير القاتم الذي آلت إليه بلادهما ويصيح بها غاضبا:

أموناسرو: إنك لست الآن ابنة ملك الحبشة، بل أسيرة ذليلة للفراعنة!

ثم يهدأ غضبه عندما تجثو عايدة أمامه راضخة، فيقول لها مستطردا:

أموناسرو: تشجعي، واذكري أن خلاص بلادنا سيتم على يديك. ولكن.. ها هو ذا راداميس قادم، فسوف اختفي أنا بين النخيل وأنصت إلى ما يقول!

ويقبل راداميس متهللا للقاء حبيبته، ولكن عايدة تستقبله في فتور:

عايدة: لماذا أتيت إلى هنا؟.. إن حبك من حق الأميرة أمنيريس!

راداميس: ماذا تقولين؟.. إنني لا أحب سواك!

عايدة: وكيف تعارض رغبات الملك والكهنة؟

راداميس: أنت تعلمين أن الأحباش سيغيرون من جديد على حدودنا. ولقد وقع الاختيار على لصد عدوانهم. فإذا قدر لي النصر هذه المرة أيضا، فسوف أطلب يدك مكافأة على حسن بلائي!

لكن عايدة لا توافقه على هذا الرأي وتقترح عليه أن يهرب معها، وإذ يرضخ راداميس لرغبتها تسأله:

عايدة: وأي طريق نسلكه لنتجنب رؤية الجيش لنا؟

راداميس: إن جيشنا لن يتحرك قبل الغد، وسيكون الطريق خاليا الليلة، فعلينا أن نهرب عبر مضيق «ناباتا».

وهنا يخرج أموناسرو من مكمنه ويكشف عن شخصيته معلنا:

أموناسرو: هنالك سوف أضع جنودي.. أنا– ملك الحبشة!

ولا يسع راداميس بعد أن تبين بشاعة جرمه إلا أن يتأهب للفرار!

ولكن صوتا يشق سكون الليل يأتي إليهم من أعلى درجات المعبد صائحا: خائن!

إنها أمنيريس التي كانت مختبئة وسمعت كل شيء!

ويهم أموناسرو بقتلها، ولكن راداميس يعترض طريقه ويطلب منه الإسراع في الهروب هو وابنته.

ويقبل كبير الكهنة على صوت الجلبة، فيتقدم منه راداميس ويسلم إليه نفسه قائلا:

راداميس: إنني لم أعد جديرا بقيادة الجيش!..

ثم يسلمه «السيف المقدس». وإذ يأخذه منه رمفيس تسدل الستار.

الفصل الرابع

المنظر الأول - قاعة المحاكمة

تمر الأميرة أمنيريس أمام مدخل القاعة بخطوات متثاقلة وقد تملكها يأس جاثم مرير. لقد تبخرت غيرتها ولم تعد تفكر إلا في حبها لراداميس والعمل على إنقاذه. وها هي ذي تنتظر مثوله بين يديها بعد أن أمرت الحراس بإحضاره.

ويقبل راداميس، فتتوسل إليه أمنيريس أن يعترف بجرمه ويطلب العفو. لكن راداميس الذي لم تعد له رغبة في العيش بدون عايدة، يرفض طلبها. فتردف الأميرة قائلة:

أمنيريس: إن عايدة لا تزال على قيد الحياة. فقد هربت بعد أن قتل جنودنا أباها. وأنا على استعداد لأن أتوسط لدى الملك ليعفو عنك إذا أقسمت لي بأن تتخلى عنها إلى الأبد!

لكن راداميس يرفض عرضها قائلا:

راداميس: إنني لم أعد أهاب الموت!

فتثور أمنيريس وتأمر الحراس بإعادته إلى زنزانته.

ويمر رمفيس وكهنته في طريقهم إلى غرفة المحاكمة، وحالما يلحق بهم راداميس. وتسمع أمنيريس الكاهن وهو ينطق بالحكم معلنا:

«راداميس! إنك ستلقى جزاء الخائن.. سوف تدفن حيا أسفل معبد الإلهة إيزيس التي خنت عهدها!»

وترتعد أمنيريس عند سماع هذا الحكم الصارم، فتتوسل إلى الكهنة أن يخففوا عنه الحكم. ولكن الكهنة يحدجونها بنظرة احتقار ويرفضون طلبها، وإذ يغادرون القاعة، تصيح أمنيريس وقد استبد بها الحزن ووخز الضمير:

أمنيريس: أيها الكهنة غلاظ القلوب، إنني ألعنكم!..

ثم ترتمي على الأرض مغشيا عليها.

المنظر الثاني - معبد فولكان

يقسم المسرح في هذا المنظر الأخير إلى طابقين: في أعلى يوجد معبد فولكان وقد ازدان بالنقوش الذهبية. وفي أسفل يوجد القبو المعتم الذي ينتظر فيه راداميس مصيره الرهيب. ويقبل كاهنان ويضمان حجرا فوق فتحة القبو فيحكمان إغلاقه.

ويجلس راداميس داخل القبو يناجي حبيبته الغائبة، فيقول بصوت خائر:

راداميس: أين الآن يا عايدة؟.. إنني أرجو ألا يكون قد بلغك مصيري!

وفجأة يسمع صوتا داخل القبو فيتملكه فزع شديد ويصيح: إنه شبح!

لكن عايدة لا تلبث أن تظهر أمامه وتعلن قائلة:

– بل هي أنا!.. وقد أتيت لأموت معك!

ويتسلل إلى القبو صوت خافت ضئيل.. إنهم الكهنة يصلون إلى «الإله بتاح القدير». وكأن هذا الصوت قد بعث في قلب راداميس حب الحياة لنفسه ولحبيبته، فيستجمع قواه محاولا رفع الحجر الذي يغلق القبو.. لكن دون جدوى! وتهدئ عايدة من روعه مواسية:

عايدة: لقد انتهى كل ما لنا على الأرض.. ولن تكف أحزاننا إلا بعيدا عنها!

ويستسلم الحبيبان لمصيرهما فينشدان: «وداعا أيتها الأرض.. وداعا يا موطن الأحزان!»

وإذ يتعانق الاثنان وهما يتأهبان الموت، تظهر أمنيريس في أعلى وقد ارتدت ملابس الحداد، ثم ترتمي فوق الحجر الذي يختم القبو وتطلب لروح راداميس السلام!

ستار

كارمن .. جورج بيزيه

Georges Bizet CARMEN

هذه الأوبرا مقتبسة من قصة بعنوان «كارمن» للروائي الفرنسي «بروسبير ميريميه» Prosder Merimee وكان «ميريميه» قد قام بعده رحلات إلى إسبانيا حيث قابل فيها ألوانا شائقة من الناس، كما سمع قصصا غريبة عن الحياة الإسبانية. ومن أغرب القصص المثيرة التي سمعها تلك القصة التي تدور حول فتاة غجرية تدعى «كارمن». وقد أوحت حياة تلك الغجرية إلى «ميريميه» بكتابة القصة.

وقرأ «جورج بيزيه» Georges Bizet – الموسيقى الفرنسي – هذه القصة، فوجدها حافلة بكل ما تستطيع أن تعبر عنه الموسيقى. ومن ثم عكف على وضع ألحانها، فكان لنا منها تلك الدرة التي خلدتها دور الأوبرا في العالم.

شخصيات الأوبرا:

مورال:	ضابط	Mora Les
ميشيلا:	فتاة ريفية	Micaela
دون جوزيه:	جندي برتبة أونباشي	Don Jose

زونيجا: **قائد حامية الجند** Zoniga

كارمن: **فتاة غجرية تعمل في مصنع للطباق** Carmen

فراسكيتا **غجريتان صديقتان لكارمن** Frasquita

مرسيديس Mercedes

اسكاميللو: **مصارع ثيران** Escamillo

رمندادو **مهربان** Remendado

دانكايرو Dancairo

المكان: **«إشبيلية» والجبال المجاورة لها**

زمن الأوبرا: **حوالي عام ١٨٣٠**

الفصل الأول

المنظر - ميدان في إشبيلية

في الجانب الأيمن توجد بوابة مصنع للطباق. وفي الجانب الأيسر توجد ثلة من الجنود يدخنون أمام معسكرهم. المارة يتزاحمون هنا وهناك. يظهر الضابط مورال وهو يتفرس وجوه المارة شأنه شأن بقية الجنود. وفجأة تقع عينه على فتاة ريفية يجول ماء الحياء في وجهها، ويبدو أنها تريد أن تسأل عن شخص ما، فيقترب منها الضابط، وحينئذ تسأله في أدب جم:

– إني أبحث عن أنباشي يدعى جوزيه.. هلا تعرفه؟

فيخبرها بأن جوزيه سوف يحضر عندما يحل موعد خفرته، ويقترح عليها أن تنتظره. غير أنها لا توافقه وتستأذن في الانصراف.

ويسمع من بعيد صوت نفير معلنا تغيير الخفرة. ويأتي دون جوزيه فيخبره الضابط عن الفتاة ذات الرداء الأزرق والضفائر المنسدلة التي أتت تسأل عنه. ويجيب جوزيه بقوله:

– لابد أن تكون ميشيلا!

ويسمع صوت نفير للمرة الثانية معلنا بانتهاء دورية الضابط مورال فينصرف الضابط ويبقى دون جوزيه مع الضابط زونيجا الذي يبدأ يوجه إليه كلاما ذا مغزى عن صاحبته الحسناء التي أتت تسأل عنه. غير أن جوزيه يرد عليه في خشونة:

– قد يعجبنك فتيات المصنع. ولكني أحب ميشيلا!

ويدق جرس المصنع معلنا الثانية عشرة ظهرا وهو موعد انصراف العاملات، فتتدفق الفتيات خارجات من المصنع. ولكن الجنود القلقين يسألون في لهفة:

– أين كارمن؟.. إننا لا نراها!

وتظهر كارمن في الميدان من حيث لا يشعر أحد. إنها غجرية خليعة ذات جمال فاسق ساحر، قد وضعت في فمها زهرة متأرجة حمراء، وراحت تسخر من تهافت الجنود عليها. ثم تغني لهم أغنية «الهابانيرا» المشهورة التي مطلعها: «إنما الحب طائر كاسر يجول في الغابة.»

وتلحظ وهي تغني «دون جوزيه» وقد جلس هادئا يصلح سلسلة ساعته غير مكترث بوجودها، في حين أخذ بقية الجنود يرددون الغناء بعدها. ويجرح عدم اكتراث جوزيه كبرياء الغجرية، فتلقي في وجهه بالوردة الحمراء، ثم تتجه نحو المصنع وهي تطلق ضحكة ساخرة.

ويعلن جرس المصنع موعد بدء العمل من جديد، فتنصرف الفتيات ويبقى دون جوزيه وحيدا. إنه يمسك بالوردة التي ألقت له بها كارمن، وإذ يتنشقها يشعر بقشعريرة تسري في جسده. إنها لم تلق عليه إلا سحرها! فيقبض على الوردة في حرص ويخفيها في سترته.

وتمضي برهة يسمع بعدها صوتا رقيقا يناديه. إنه صوت ميشيلا! فيقبل على حبيبة طفولته يحييها. وتسلم إليه ميشيلا خطابا أحضرته له من والدته التي تقطن في القرية البعيدة عن الوادي. وتنصرف الفتاة الوادعة مسرعة قبل أن يفض الخطاب.

وما أن ينتهي جوزيه من قراءته حتى يحدث نفسه قائلا:

– لا تخافي يا أماه! فلسوف أفعل كما تشائين. إنني أحب ميشيلا، وسأتزوجها على الرغم من الوردة المسحورة!

وفجأة تنبعث من المصنع أصوات استغاثة صارخة. لقد طعنت كارمن إحدى زميلاتها بمدية حادة، وقامت على الأثر مشاجرة حامية.

ويقع اختيار الضابط زونيجا على دون جوزيه لينقذ الموقف، وبعد قليل يعود الجندي ومعه كارمن غير مكترثة بشيء، وفي غير مبالاة ترفض أن تجيب على أسئلة الضابط وتشرع في الغناء. ويستشيط الضابط غضبا فيصيح بها:

– إذا لم تكف عن هذا الاستهتار فسوف تتمين أغنيتك في السجن!

ويتركها الضابط تحت حراسة جوزيه.

وتتخطر كارمن في إغراء على الرغم من أن يديها مشدودتان إلى مقعد خلفها، وتغني للجندي الطيب القلب أغنية عاطفية وتغريه بما يوجد في حانة «ليلاس» من لذات ومسرات يمكن أن يتمتع بها إن هو أطلق سراحها.

ولا يستطيع جوزيه أن يصمد طويلا أمام إغراء الغجرية، فيقطع الحبال التي توثق يديها ويعدها بأن يقابلها في الحانة.

ويأتي الجنود الذين أرسلهم الضابط زونيجا لتسلم المتهمة، ولكن كارمن تستطيع بدهائها وسعة حيلتها أن تدفع جوزيه بيديها فيسقط فوق أقدام الجنود الذين يسقطون بدورهم على الأرض، فتتمكن بذلك من الفرار. وتثبت على جوزيه تهمة تيسير سبيل الفرار للمتهمة، فيصدر الضابط زونيجا أمره بالقبض عليه.

الفصل الثاني

المنظر - حنة ليلاس

الحانة حافلة بكثير من الغجريات اللاتي يرقصن ويعزفن على القيثارة. كارمن ترتدي زيا إسبانيا رائعا، وتتحدث مع صديقتيها فراسكيتا ومرسيديس وجماعة من الضباط.

يغلق «ليلاس» أبواب الحانة فيطلب الضابط زونيجا من كارمن أن تصحبه إلى منزله. وترفض كارمن، ولكن زونيجا يلح عليها:

– هل أنت متألمة مني؟ لقد أطلقت سراح جوزيه!

ويظهر في هذه اللحظة ضوء مشعل يقترب من الحانة.. فيقول الضابط:

– إنه «اسكاميللو» مصارع الثيران المشهور!

ويقترب المصارع المختال في زيه المزركش وحوله جماعة من المعجبين. ويشرب الجميع نخب مصارع الثيران العظيم.. ويرد اسكاميللو عليهم هذه التحية بأغنية «ترياذور» المشهورة التي تصف مغامرات مصارع الثيران.

ولا تحول كارمن نظرها عن هذا المغامر الساحر طوال هذه الأغنية! ويسألها اسكاميللو بعد أن ينتهي من الغناء عن اسمها:

– أود أن أعرف اسمك حتى استخدمه كسحر كلما واجهت خطرا!

وتجيبه كارمن إلى طلبه..

ويغادر إسكاميللو الحانة مع الضابط زونيجا وزملائه تاركين كارمن مع صديقتيها فراسكيتا ومرسيدس، وهنا تصفق كارمن تصفيقا خاصا، فيخرج من حجرة جانبية رجلان عليهما طابع الغلظة والخشونة. إنهما المهربان «رمندادو ودانكايرو» اللذان تعمل كارمن وزميلاتها لحسابهما.

ويحث الرجلان كارمن وزميلتيها فراسكيتا ومرسيدس على اللحاق بهما في حملتهما التجريدية التي اعتزما القيام بها هذه الليلة. ولكن كارمن تجيب:

– لا أستطيع الذهاب، فأني أحي!

وفي اللحظة التي يتوسلون فيها إليها أن تعدل عن رأيها، يسمع صوت الجندي دون جوزيه في الخارج يغنى أغنية عسكرية معروفة. لعلها إذن تستطيع أن تحثه على الانضمام إليهم!

ويترك المهربان كارمن بمفردها لتحيي حبيبها، فتأخذ في الرقص حول المقعد الذي طلبت من جوزيه الجلوس عليه.

ويقطع رقصها صوت بوق بعيد، فيتذكر جوزيه أنه نداء العودة إلى المعسكر ويهم بالانصراف. ولكن كارمن التي لا تعرف إلا نداء قلبها، تحتد

وترتسم على وجهها علامات السخط والغضب، فتقذف له بقبعته. وعبثا يحاول جوزيه أن يهدئ من ثورتها.

جوزيه: من الخطأ أن تهزئي بي يا كارمن.. اصغ إلى!

ثم يظهر لها الوردة الحمراء الذابلة التي كان يحتفظ بها في سترته وهو في السجن كدلالة على حبه المقيم لها، ولكن كارمن العتيدة تصر على رأيها.

كارمن: إذا كنت تحبني حقا، فعليك أن تتبعني إلى حيث الحرية في الجبال!

جوزيه: أليس من العار أن أتخلى عن العلم الذي من أجله أحارب؟

كارمن: إذن عد إلى معسكرك؛ فإني احتقرك! ويوشك الاثنان على الافتراق عندما يعود الضابط زونيجا ليرى هل قر رأي كارمن على اصطحابه الليلة إلى منزله. وإذ يلمح جوزيه يعنفها على تفضيلها جنديا عاديا عليه. ثم يأمر الجندي بالانصراف. ولشد ما تكون دهشته عندما يجيبه جوزيه:

– سوف لا أنصرف!

لقد سحقت الغيرة عقله فجعلته لا يدرك الموقف على حقيقته، وها هو ذا يدعو رئيسه للنزال فينتصر عليه ويرديه قتيلا! وتمضى برهة من الصمت الرهيب تسأله بعدها كارمن:

- والآن.. هل تنضم إلينا؟

ويتبين الجندي خطر الجريمة التي اقترفها، فلا يتردد في الانضمام إلى جماعة الخارجين على القانون.

الفصل الثالث

المنظر - في الجبال

يقترح دانكايرو – أحد المهربين – على العصابة أن تحط رحالها، ثم يرسل بعض الأفراد تجاه الساحل للاستطلاع، وترقد الغجريات على الأرض في تراخ وقد ارتدين ملابسهن الفضفاضة المزركشة.

أما دون جوزيه فيجلس وقد بدت عليه علامات الأسى العميق. إنه يتطلع إلى ذلك الوادي البعيد حيث تعيش أمه ويسأل نفسه: ترى هل بقيت لديه ذرة من الشرف؟

وتدرك كارمن ما يخالج نفس الجندي فتسأله في عنف:

– إذا كانت حياتنا لا تلائمك، فلم لا تعود إلى أهلك؟

ويثور جوزيه لهذا السؤال الجارح، فيضع يده على

– تستطيع أن تقتلني إن شئت. ولكن.. ماذا بعد الخنجر المعلق إلى جانبه.

ولكن كارمن تبادره بقولها: ذلك؟!

وتمضى فترة صمت تذهب بعدها كارمن إلى حيث تجلس زميلتاها فراسكيتا ومرسيدس تكشفان عن الحظ بالورق. وتكشف كارمن عن حظها، فلا يكشف لها اثنتي عشرة مرة متتالية إلا عن شيء واحد: الموت!

ويعود دنكايرو ليعلن خلو الساحل من الحراس، اللهم ثلاثة يقفون عند ممر جانبي، فيطلب من كارمن وزميلتيها الذهاب لمراودتهم. أما دون جوزيه فيبقى لحراسة البضائع التي تم السطو عليها.

وهنا تظهر ميشيلا – حبيبة طفولته القديمة – وقد ارتدت ثوبها الأزرق، ومعها حارس تطلب منه الابتعاد حينما تقترب من المكان الذي يجلس فيه جوزيه. وما إن تقع عينها عليه حتى تشير إليه وتناديه، ولكن جوزيه لا يسمع نداءها لعلو الصخرة التي يجلس عليها.

وفجأة يسمع صوت طلقة نارية، فتختفي ميشيلا خائفة وراء صخرة جانبية. وفي هذه اللحظة يظهر إسكاميللو – مصارع الثيران – وقد أمسك بقبعته ليرى موضع الثقب الذي أحدثته الطلقة!

ويندفع إليه جوزيه ويسأله في حدة:

– من أنت؟

– إسكاميللو مصارع الثيران. وقد أتيت لأبحث عن فتاتي الغجرية التي تدعى كارمن. وكان آخر ما سمعته عنها أنها وقعت في غرام أحد الجنود. غير أن حبها لا يدوم على ما أظن أكثر من ستة أشهر!..

ويسحب كل من الرجلين خنجره استعدادا للقتال. ولكن كارمن لا تلبث أن تعود فتوقف المبارزة بمساعدة زميلتيها. ويقول إسكاميللو قبل مغادرة المكان:

– أود قبل أن أترككم أن أدعوكم جميعا لمشاهدة مصارعة الثيران في إشبيلية، وبطبيعة الحال سوف يأتي لمشاهدتي هناك من يحبني!

ويعثر ريمندادو – أحد المهربين – أثناء عودته على ميشيلا مختبئة وراء الصخرة، فيأتي بها إلى جوزيه. وتقول الفتاة الريفية بصوت ساذج حزين:

– إن أمك تبكي من أجلك. فارحمها وعد إليها معي.

وتؤيد كارمن هذا الرأي بقولها:

– نعم.. اذهب معها فان حياتنا هنا لا تناسبك!

ولكن جوزيه يشتم من قول كارمن عدم تعلقها به، فيصر على البقاء.

وتتوسل إليه ميشيلا مرة ثانية:

ميشيلا: ولكن أمك في طريقها إلى الموت!

ويقبل جوزيه بعد لأي العودة معها. وما أن يبتعد قليلا حتى يسمع من بعيد صوت إسكاميللو وهو يغني أغنية توريادور المشهورة.. وتبقى كارمن وحيدة. فتمسك بورق اللعب وتطوح به في الهواء. إنها سوف تسخر من الحظ ومن القدر، وسوف لا تموت كما قال لها الورق، بل ستعيش من أجل إسكاميللو. ترى هل تطول سخريتها من القدر؟!..

الفصل الرابع

المنظر - مدخل ميدان مصارعة الثيران في إشبيلية

لفيف من الباعة الجائلين يتزاحمون ويعرضون بضاعتهم على الجمهور الذي أخذ يتدفق ليشاهد مصارعة الثيران. ويتقدم مصارعو الثيران في موكب رائع يصحبهم ضباط المدينة. وفجأة يتعالى هتاف الجمهور. إنه يحيي إسكاميللو بطل مصارعة الثيران!

وينزل إسكاميللو من عربته، وتنزل من جانبه كارمن وقد ارتدت ثوبا فاخرا وتزينت بمجوهرات ثمينة، فيساعدها إسكاميللو وهي تهم بالنزول.

ويأتي جوزيه بدافع الشك والغيرة وراء كارمن، فيندس بين الجمهور، ويتوارى خلف سور الملعب. ويتحين فرصة وقوف كارمن وحيدة بعد أن ذهب عنها إسكاميللو ليرتدي ملابس المصارعة، فيتقدم منها ويتوسل إليها في خنوع تمجه نفسها:

– إنني لا أهددك. ولكني أتوسل إليك.. دعينا نبدأ حياة جديدة بعيدة عن هنا!

– من المستحيل، فقد انتهى كل شيء بيننا. ويتعالى هتاف الجمهور لانتصار إسكاميللو!

ولكن هذا النجاح الذي يثلج صدر كارمن، يسحق قلب جوزيه. فيستل مديته ويغمدها في صدرها. وتصرخ كارمن في رعب ثم تسقط مضرجة بدمائها.

ويوجه جوزيه كلامه إلى الجمهور الذي أقبل على الفور:

– تستطيعون أن تقبضوا عليّ لقد قتلتها!

ثم يلقي بنفسه على جسد كارمن وهو ينشج بالبكاء:

– كارمن يا معبودتي!

ستار

فيديليو .. بيتهوفن

Beethoven FIDELIO

كانت هذه الأوبرا فيما مضى تعرف باسم «ليونور» Leonore وقد كتب كلماتها «سونلايثنر» Sonnleithner، ووضع ألحانها الموسيقى النمساوي المشهور «ألدفيج فان بيتهوفن» Ludwig Van Beethoven، وقدمت لأول مرة على مسرح فيينا بالنمسا عام **١٨٠٥**. وقد اقتضت ظروف سياسية في ذلك الوقت أن يجري فيها بيتهوفن عدة تعديلات، وأن يغير اسمها إلى الاسم الذي صارت تعرف به اليوم.

شخصيات الأوبرا:

جاكينو: سجان Jaquino

مارزلين: خطيبته Mqrzellino

روكو: حارس السجن Rocco

ليونور: (فيدليو) Leonore (Fidelio)

دون بيزارو: مأمور السجن Don Pizarro

فلورستان: زوج ليونور Florestan

دون فرناندو: **وزير العدل** Don Fernando

زمن الأوبرا: القرن الثامن عشر

المكان: إسبانيا

المنظر الأول - منزل حارس السجن

«دون بيزارو» رجل طاغية لا يلين له قلب، يشغل منصب مأمور أحد السجون قرب إشبيلية. والسجن الآن يخيم عليه الظلام والعبوس. غير أن منزل حارس السجن يبدو كأنه عالم آخر لما يضفيه عليه الحارس روكو وابنته ذات الجمال الأخاذ مارزلين من بهجة ومرح.

وبينما يباشر الأب عمله في السجن، تبقى مارزلين بمفردها في المنزل. وهنا يأتي السجان جاكينو يتودد إليها ويعاتبها على مجافاتها إياه.

والحقيقة أن الفتاة في شغل عنه بالشاب فيديليو الذي عين أخيرا مساعدا لأبيها. وبينما جاكينو يتودد ويتوسل، يصل الأب روكو يسأل عن مساعده الجديد فيديليو.

وفي هذه اللحظة يسمع قرع على الباب، فيذهب جاكينو ليرى من الطارق. وتضطرم الغيرة في قلبه بعنف عندما يرى أمامه الشاب الوسيم فيديليو، الذي ليس في حقيقة أمره سوى «ليونور فلورستان» وهي سيدة من إشبيلية زج بزوجها في سجن لا تعرفه، فحزمت أمرها على أن تتنكر في زى رجل وتذهب للبحث عنه.

ويدخل فيديليو (ليونور) حاملا سلة مملوءة بالطعام. وإذ يساعده الأب روكو على إخراج محتوياتها يثني عليه ويبدي ارتياحه لعمله. والحقيقة أنه يفكر في أن يزوجه ابنته مارزلين. ويدرك فيديليو ما يدور في خلد الأب، فيجثم أمامه خطر الموقف أن هو افتضح أمره. وبعد برهة من الصمت الحائر يقول:

فيديليو: أيها السيد روكو، إنني أود كثيرا أن أساعدك في عملك. لماذا لا تأخذني إلى السراديب الأرضية؟

روكو: إن لدي أوامر مشددة من المأمور بألا أدع أحدا يرى السجناء!

وتنظر مارزلين إلى أبيها قائلة:

مارزلين: إن واجباتك تثقل كاهلك، ومن المؤكد أن المأمور سوف يسمح لفيدليو بأن يشاركك إياها.

روكو: سأستطلع رأيه على الرغم من أني أعرف أن هناك زنزانة في هذا السجن لا يمكن لأحد غيري أن يدخلها. إن نزيلها المسكين قد قضى فيها حتى الآن سنتين لا يرى خلالهما الضوء، ولا يقدم إليه إلا القليل من الطعام.

وتمسك ليونور «فيديليو» صيحة كادت تفلت من بين شفتيها. ماذا لو كان هذا السجين المعذب هو زوجها فلورستان؟ وأخيرا تخفي ألمها وقلقها وتقول:

فيديليو: خذني معك! إن لدي الشجاعة الكافية وسوف لا أقصر في مهمتي.

روكو: سوف نرى.. وعلى المأمور أن يوافق أولاً.

ثم يبتسم لابنته مارزلين ابتسامة ذات مغزى مشيرا إليها أن تقترب من فيديليو وتتحدث إليه. ولكن فيديليو (ليونور) لا يفكر إلا في شيء واحد، وهو كيف يدبر خطة ينقذ بها السجين فلورستان!

المنظر الثاني– فناء السجن

يظهر دون بيزارو مأمور السجن تحيط به ثلة من الجنود المسلحين.

دون بيزارو: ثلاثة حراس على السور الخارجي، وستة فوق القنطرة! وأحضر إلي في الحال كل من تسول له نفسه الاقتراب من الخندق.

وبعد أن يفرغ المأمور من إصدار أوامره الصارمة الجافة، يمسك بالرسائل التي يقدمها الحارس روكو ويتصفحها في عجل. وفجأة يقول في اهتمام بالغ.

دون بيزارو: سيحضر الوزير للتفتيش على القلعة. غير أنه لن يتمكن من اكتشاف فلورستان ذلك الذي سآمر بقتله قبل أن يصل إلى هنا!

ثم يصدر أمره بتشديد الحراسة على الطريق الموصل إلى إشبيلية، وبأن يقف جندي في أعلى البرج لينفخ في النفير عندما يرى ركب الوزير قادما من بعيد.

وما أن ينصرف الجنود من الفناء، حتى يظهر فيديليو وهو ينصت في اهتمام زائد من خلف أحد الأبواب الجانبية، وفي هذه اللحظة ينادي المأمور الحارس روكو ويقول له:

دون بيزارو: هاك كيس من الذهب، وسوف يكون لك أكثر إن أطعت أوامري.

روكو: وماذا عساي أن أفعل؟

دون بيزارو: هناك بعض أسباب تتعلق بشئون بالدولة تحتم علينا أن نقتل أحد المسجونين هنا في الحال. لقد ارتكب خيانة!

روكو: سيدي، أنني لا أؤجر للقتل!

دون بيزارو: إنك لجبان! وأن تخلت عنك شجاعتك فسوف أقوم بالمهمة بنفسي. والآن أذهب إلى السجين في السرداب وأحفر له قبرا في

البئر المهجورة. أفهمت؟ وسوف ألحق بك متنكرا وأضع حدا لحياته. هيا أذهب ونفذ ما أمرتك به!

وما أن يخرج الرجلان من الفناء حتى يظهر فيديليو وهو يلاحق دون بيزارو بنظراته ويقول لنفسه بصوت خفيض:

– أيها الوحش! أليس من رحمة في قلبك؟

إن كل ما سمعه خلسة يؤكد له تأكيدا قاطعا إن السجين ليس سوى فلورستان. ومع ذلك، فإنه لا يستطيع أن يقطع بصحة ما يعتقد إلا حينما ينزل مع الحارس روكو ويرى السجين بنفسه..

– أيها الأمل، لا تتخل عنى، بل قدني إلى ما أريد!

ثم يمضي إلى الحديقة. وهنا تظهر في الفناء مارزلين ومعها السجان الشاب جاكينو الذي يلاحقها دائما ويتودد إليها. وتجيب مارزلين الشاب بقولها:

مارزلين: إنني لا أنكر حبي لك في يوم من الأيام، غير أن فيديليو يستهويني إلى حد بعيد.

ثم يعود فيديليو إلى حيث يقابل روكو ويقول له:

فيديليو: أيها الأب الطيب، لطالما رجوتك أن تسمح للمسجونين بالتنزه في الحديقة. والجو اليوم صحو. ألا تبر بوعدك؟

روكو: نعم يا فيديليو. وأنا ذاهب الآن إلى المأمور لأسأله إن كنت تعمل معي في المعتقل.

وينصرف روكو، فيفتح فيديليو وجاكينو أبواب الزنزانات طالقين سراح المسجونين الذين لم تر أعينهم ضوء النهار منذ أن زج بهم في غياهب القلعة!

وإذ ينطلق المسجونون إلى الحديقة ونفوسهم يشع فيها الفرح، يتبعهم مارزلين والسجان. غير أن فيديليو يبقى في الفناء. وفي النهاية يبصر روكو عائدا من منزل المأمور فيسأله في لهفة:

فيديليو: ما وراءك من أنباء؟

روكو: أجابني إلى طلبي. وسوف تنزل معي إلى أعماق السجن، ولكن لا تتفوه بكلمة واحدة لأحد، وعلينا أن نقوم الآن بالحفر!

وفجأة تظهر مارزلين وهي تعدو وتلهث من فرط التعب.

مارزلين: أبي!.. كن على حذر. فإن المأمور قادم من الحصن!

وما أن ينتهي السجان جاكينو من إعادة المسجونين إلى زنزاناتهم، حتى يظهر المأمور ويسأل في حدة:

دون بيزارو: أيها الأحمق، كيف تجرؤ على إطلاق سراح هؤلاء الرجال؟!

ثم يردف هامسا:

دون بيزارو: أذهب الآن ونظف صهريج المياه، فليس هناك وقت يمكن أن نضيعه!

وينصرف المأمور، فيغلق جاكينو الزنزانات، بينما يتبع فيديليو الحارس روكو في صمت حزين وقد حمل في يده مصباحا وبعض الآلات. وينزل فيديليو إلى أعماق السجن.. إلى حيث لا يعلم كيف ينتهي أمر فلورستان السجين!

الفصل الثاني

النظر الأول - المعتقل

يجلس السجين فلورستان في زنزانته المعتمة مكبلا بالأغلال يفكر في زوجته ليونور (فيديليو) ويسترسل مع ذهنه الشارد في الخيال. وفجأة يفتح باب المعتقل وينزل على السلم الحارس روكو ومعه فيديليو، ويحملق فيديليو في السجين عله يتعرف عليه، غير أن شدة الظلام تحول بينه وبين تحقيق ما يريد. وسرعان ما يرتعد حينما يسمع صوت السجين وهو يتأوه ويتأود ألما. إنه فلورستان!

فلورستان: أعطني جرعة من الماء!

وعلى الرغم من الأوامر المشددة، فإن روكو لا يتردد في إجابة السجين إلى طلبه، فيناوله كأسا من الخمر، ثم ينصرف إلى حفر القبر. وما أن يفرغ من ذلك حتى ينفخ في صفارته بطريقة خاصة فيحضر المأمور على الأثر، وقد أمسك في يده خنجرا حادا، وهنا يتقدم فيديليو فيعترض طريقه. ولكن المأمور يدفعه بيده ويصيح غاضبا:

– إليك عني أيها الغلام الوقح!.

ويقف فيديليو (ليونور) أمام فلورستان ليحميه ويقول:

– إنني زوجته!

ومرة أخرى يتقدم المأمور شاهرا مسدسه. وفي هذه اللحظة يسمع صوت نفير، إنه علامة وصول وزير العدل! ويصيح الحارس روكو في ارتياح:

– شكرا يا الهي!

ثم يتبع المأمور إلى الفناء، بينما تبقى ليونور (فيديليو) مع زوجها السجين.

المنظر الثاني - أحد أبراج القلعة

يصل «دون فيرناندو» وزير العدل ليتفقد شئون القلعة، فيهتف له أهالي المدينة والمسجونون. ويعلن الوزير قائلا:

– سوف أساعدكم جميعا بكل طريقة أستطيعها.

ويتقدم روكو موغلا في غمار الزحام ومن خلفه ليونور وزوجها فلورستان. ويقول الحارس:

روكو: إذن ساعد هاتين الضحيتين!

ويحملق الوزير في السجين فلورستان وقد تملكته الدهشة:

الوزير: فلورستان! أنت يا من ظننتك في عداد الأموات.. وليونور؟!

دون بيزارو: اسمح لي أن أشرح..

ولكن الوزير يمنعه من الكلام قائلا:

– لا تتفوه بكلمة واحدة!

ثم يلتفت إلى ليونور ويقول لها:

– أيتها الزوجة النبيلة، هاك المفاتيح التي تفكين بها أغلال زوجك. فلن يحرره من الأسر سواك!

ستار

سالومي .. رتشارد شتراوس

Richard Strauss SALOME

«سالومي» دراما موسيقية في فصل واحد. ترجمها إلى الألمانية «هدفيج لاخمان»Hedwig Lachmann من مسرحية للكاتب الأيرلندي «أوسكار وايلد» Oscar Wilde، ووضع موسيقاها الموسيقى الألماني «رتشاد شتراوس» Richard Strauss. وقد قامت لأول مرة في «درسدن» عام ١٩٠٥

شخصيات الأوبرا:

نارابوث: ضابط سوري شاب Narraboth

يوحنا المعمدان Jochanaan

سالومي: ابنة الملكة Salome

هيرودس: ملك ولاية «اليهودية» Herod

هيروديا: زوجته ووالدة سالومي Herodias

خمسة من اليهود

اثنان من الناصريين

زمن الأوبرا: عام ٣٠ قبل الميلاد.

المكان: ولاية «اليهودية» بفلسطين.

المنظر - الشرفة الكبرى بقصر الملك هيرودس

يجوس القمر بين طوايا الغمام، ثم لا يلبث أن يخرج إلى الأفق ساطعا مضيئا كأنه كرة من النور تتقاذفها السحب، في حين يمشي الضابط الشاب نارابوث متخطرا في الشرفة، يرمي ببصره إلى القاعة التي أقيمت فيها الوليمة. وإذ يقع بصره على الأميرة سالومي يقول في نجواه:

– كم هي رائعة الليلة!

وغير بعيد من نارابوث يقوم جنديان بالحراسة. وإلى الجانب الآخر يقف أحد خدم الملكة هيروديا. ويقول الخادم للضابط محذرا:

– لقد أطلت النظر إلى سالومي! إن شيئا مخيفا سوف يحدث!

وفجأة يسمع صوت صارخ مفزع ينبعث من مستودع مياه فوق الشرفة:

– سوف يأتي بعدي من هو أعظم مني. وعندما يأتي ستبصر العيون التي لا ترى، وتسمع الآذان التي لا تعي!

ويسأل أحد الجنود وقد اعترته الدهشة:

– من ذا الذي يتكلم؟

– رجل قديس من الصحراء اسمه يوحنا.

ويتملك الضابط نارابوث اضطراب ظاهر ثم يصيح وهو يقترب من الجنود:

– لقد غادرت الأميرة المائدة، وها هي ذي آتية!

وتظهر سالومي في الشرفة. إنها آية رائعة من آيات الجمال، تنبض بالفتنة والحيوية، وتزهر في أفخر رداء، وتغمغم الأميرة قائلة:

– لا أستطيع البقاء في الداخل. فإن زوج أمي هيرودس لا يحول نظره عني!

وتبقى سالومي في الشرفة تستنشق نسمات الليل المنعشة. غير أن هدوءها لا يلبث أن يقطعه صوت يوحنا وهو يدعو إلى تعاليم المسيح.

وهنا تتوجه إلى الجنود وتقول لهم في صوت حازم.

– أحضروا إلى هذا الرجل!

– إننا لا نجرؤ، فذاك محظور علينا!

ولكن الأميرة التي لا تريد أن يثنيها عن عزمها شيء، تنظر إلى الضابط نارابوث نظرة يتساقط منها الإغراء وتقول له:

– أنت ستفعل هذا من أجلي يا نارابوث! وغدا، عندما أكون في طريقي إلى مضجعي، ربما ابتسمت إليك!

ولا يسع الضابط الشاب إلا أن يستسلم لرغبتها ويخالف أمر هيرودس، ومن ثم يصدر أمره إلى يوحنا القابع داخل صهريج المياه بأن يغادره على الفور، ويخرج يوحنا في حركة وليدة من صومعته المظلمة، إلى الشرفة التي ينساب عليها ضوء القمر.

وفي رداء خشن متواضع يقف القديس على حافة الصهريج شاحب الوجه، مجمد الشعر. وإذ يشعر بسالومي تحملق فيه يسأل:

– من هذه المرأة؟

وتجيب الأميرة:

– سالومي، ابنة هيروديا!

– إليك عني!.. فلقد ملأت أمك الأرض عارا!

وتنصت سالومي في شغف زائد إلى كلام يوحنا. ثم تتوسل:

– تكلم ثانية يا يوحنا! إن صوتك ينساب إلى أذني كالموسيقى!

وهنا تتأجج نار الغيرة في قلب الضابط الشاب، فيطلب من الأميرة في ضراعة أن تعود إلى القاعة التي فيها الوليمة. غير أن سالومي تتجاهله وتوجه كلامها إلى يوحنا:

سالومي: يوحنا! لا بد أن أقبل شفتيك!

وهنا لا يقوى الضابط الشاب على احتمال ما يرى، وكأنه مرجل يغلي بالانفعال، فيطعن نفسه بخنجره طعنة يسقط على أثرها بين يوحنا وسالومي وقد فارق الحياة!

غير أن سالومي لا تزال مندفعة في تيار شهواتها الجارف وتصر على تقبيل يوحنا. فيقول لها والجزع يرعش أطرافه:

يوحنا: يا ابنه الخطيئة، إن أمامك فرصة واحدة للخلاص. اذهبي وابحثي «عنه» على بحر الجليل واطلبي منه الصفح.

وتثبت سالومي عينيها في وجه يوحنا ثم تقول له بصوت ثمل يبعث على الإغراء:

سالومي: شفتيك يا يوحنا! لابد أن أقبل شفتيك!

ويصيح يوحنا في احتجاج صارخ:

– مطلقا! مطلقا! انك ملعونة يا سالومي!

ثم يعدو مسرعا إلى صومعته ويختفي فيها بعد أن يغلق دونه بابها الحديدي.

لكن سالومي تلحق به وتقف عند حافة الصومعة. وإذ ترمي ببصرها إلى الظلام الحالك الذي يملأها تطلق ضحكة مغصوبة ساخرة.

وهنا تسمع أصوانا قادمة من قاعة الاحتفال فتختبئ وراء الصهريج. ويظهر هيرودس في الشرفة وهو يترنح من فرط الشراب وقد سارت إلى جانبه زوجته هيروديا ومن ورائها بعض الأتباع.

ويصيح هيرودس متسائلا:

– أين سالومي؟ لماذا لم تعد إلى الوليمة؟

وتجيب هيروديا محتدة:

– يجب ألا تنظر إلى ابنتي! إنك دائما تبحث عنها!

ولا يعبأ هيرودس باحتجاج زوجته فيجول ببصره عسى أن تقع عينه على بغيته. وفجأة يبصر نارابوث ملقى على الأرض وقد فارق الحياة فيرتد إلى الخلف مذعورا، ويخيل إليه أنه يسمع صوت أجنحة تخفق بسرعة.

وتقول له زوجته ساخرة:

– إنك مريض. دعنا ندخل القصر.

ويجيب هيرودس في انفعال ظاهر:

– لست مريضا!

لقد وقعت عينه على سالومي وهي مختبئة. ثم هو يتقدم منها ويدعوها إلى تناول الخمر معه. وإذ ترفض طلبه ينبعث صوت صارخ من أعماق الصهريج يتنبأ بانتهاء الشر.

وتصيح هيروديا خائفة:

– مره أن يصمت! لم لا تسلمه إلى اليهود؟

ويجيب هيرودس زوجته قائلا:

– لقد قلت لك من قبل أنه رجل مقدس رأى الله!

وتسود موجة من التذمر والاحتجاج بين أتباع هيرودس من اليهود:

– إن أحدا لم ير الله منذ زمن النبي إيليا!

ويقول اثنان من الناصريين من تلامذة المسيح:

– إن المسيح موجود على الأرض ويقوم بعمل المعجزات في «الجليل». ولقد أقام حتى الأموات!

ويتساءل هيرودس هامسا في خوف:

– أقام الأموات؟ إن هذا لا يجب أن يكون. إنني أمنعه! ومرة أخرى ينطلق صوت يوحنا في سيل من الغضب والوعيد.

وتصيح هيروديا إلى زوجها:

– مره أن يصمت!

غير أن هيرودس لا يعبأ بطلبها. فإن انتباهه موجه إلى سالومي وحدها.

هيرودس: ارقصي لي يا سالومي!

سالومي: وهل تمنحني أي شيء أطلبه؟

هيرودس: أي شيء!

وبعد أن تستخلص سالومي من هيرودس الوعد المطلوب تتأهب للرقص. وينهض هيرودس من على عرشه وكأنه ثمل من فرط النشوة التي طغت على جوارحه. ومرة أخرى يسمع صوت أجنحة تخفق بسرعة. ثم تحل برأسه الذي أثقله الشراب حمى ملتهبة تجعله يترنح في مشيته ويلقي بإكليل الزهر الذي يتوج جبينه.

وتتقدم الأميرة الراقصة وهي تميس في ثوب حريري يبهر الأنظار، تصاحبها في حركاتها الفاتنة موسيقى مثيرة ساحرة، ثم تبدأ في خلع ثيابها قطعة قطعة إمعانا في الإغراء.

وتقف سالومي لحظة أمام الصهريج الذي سجن فيه يوحنا. وإذ تخلع آخر ما تبقى على جسدها، تلقي بنفسها تحت قدمي هيرودس. ويسألها الملك:

هيرودس: أيتها الأميرة الفاتنة! اطلبي ما تشائين!

سالومي: إنني أطلب رأس يوحنا على طبق من الفضة!

ويصعق هيرودس لهذا الطلب.

هيرودس: كلا! أي شيء غير هذا. سوف أعطيك مجوهراتي الثمينة.. طواويسي البيضاء – حتى طنافس المعبد!

ولا يروق هذا الكلام الفاضح في نظر اليهود فيغادرون القصر.

وتصر سالومي على طلبها قائلة:

– أريد رأس يوحنا! لقد أعطيت عهدا أيها الملك!

– وبعد لأي يقبل هيرودس...

وترتسم ابتسامة سافرة على شفتي الملكة هيروديا التي طالما هاجمها يوحنا لاستهتارها. ثم تخلع من إصبع زوجها «خاتم الموت» وتسلمه إلى الجلاد!

وينزل الجلاد حاملا سيفه إلى حيث يوجد يوحنا، ثم يطبق على المكان سكون رهيب.

وفجأة تصيح سالومي:

– لم لا تضرب؟ أرسلوا جنودا آخرين!.. أحضروا إلي رأس يوحنا!

وبعد قليل تظهر يد الجلاد من أعلى الصهريج حاملة طبقا عليه رأس يوحنا!

وتصيح الأميرة في فرح جنوني:

– آه! سوف لا تقاسي شفتاك من تقبيلي يا يوحنا. فأنت الآن في عداد الأموات، وأنا – التي ما زلت حية – سوف أحقق رغبتي!

وهنا ينظر هيرودس إلى زوجته والذعر يقفز من عينيه:

– هيا، فلندخل القصر.

ثم ينادى عبيده ويأمرهم بإطفاء المشاعل. ويخيم على الشرفة ظلام وحشي دامس.. وينبعث صوت سالومي خافتا متهدجا مذبوحا:

– آه يا يوحنا! لقد قبلت فمك!.. وكان هناك طعم لاذع على شفتيك! ترى هل كان ذلك طعم الدم أم طعم الحب!

وتطغى على سالومي فكرة الانتصار فتقول في صوت مروع:

– ولكن ماذا يهم الطعم اللاذع؟ وماذا يهم الحب؟ يوحنا!.. لقد قبلت شفتيك!

ويجوس القمر بين طوايا الغمام، ثم يلبث أن يخرج إلى الأفق ساطعا مضيئا، فيكشف عن سالومي وهي تقبل رأس يوحنا.. وحينئذ يصيح هيرودس قائلا:

– اقتلوا تلك المرأة!

ويحيط الجنود بسالومي ثم يرفعون عليها سيوفهم فتسقط على الأرض.

ستار

أرفيو وإيريديس.. كرستوف جلوك

Christoph Gluck ORFEO ED EURIDICE

تعتبر هذه الأوبرا خير ما يمثل اتجاه الموسيقي الألماني «كرستوف جلوك» Christoph Gluck في أن يجعل من الأوبرا مزيجا متوافقا من الموسيقى والدراما والبالية. وقد بنيت على قصة خرافية كتبها باللغة الإيطالية – وفقا لما كان يجري في ذلك العصر – الكاتب الإيطالي «كالزابيجي» Calzabigi، وقدمت لأول مرة على مسرح فيينا بالنمسا عام ١٧٦٢.

شخصيات الأوبرا:

أرفيو: مغني Orefeo

آمور: إله الحب Amor

ايريدس: زوجة أورفيو Euridice

آلهة

أرواح

حراس معبد الحب

زمن الأوبرا: خرافي

المكان: اليونان والعالم السفلي

الفصل الأول

المنظر - مقبرة إيريديس

انطفأت جذوة الحياة في «إيريديس» الشابة على غير انتظار، فأذهلت هذه الصدمة المفجعة زوجها المغني «أرفيو» وانقضت قدرته على الغناء، وأصبح كل ما يقوى على التفوه به هو كلمة «إيريديس»، يطلقها بين الحين والحين في يأس قاتل وحسرة موجعة.

ويتجمع لفيف من الشبان والفتيات حول قبر الزوجة الراحلة لينشدوا أنغاما حزينة. وفي النهاية يجد أرفيو من الكلمات ما يسعفه على التعبير عن حزنه، فيقول وهو ينشج بالبكاء:

– أصدقائي! إن نحيبكم يزيد من ألمي! هيا نمجد إيريديس بأن ننثر فوق قبرها الزهور!

وفي سكون مطبق رهيب يقوم الأصدقاء بعمل الشعائر التقليدية التي تقام للأموات. فتنثر الزهور حول القبر، وتطفأ المشاعل، ثم يمضي المحتفلون وقد أغرقوا في حزن عميق.

ويغادر أرفيو المكان بخطوات وئيدة متثاقلة وهو ينتحب ويردد اسم إيريديس عسى أن تستجيب لندائه وتقوم من بين الأموات. غير أنه لا

يسمع إلا رجع صوته يدوى صارخا كئيبا في أعماق الوادي. ويصيح الزوج المفجوع:

– أيتها الآلهة عديمة الرحمة! لا بد أن أرى عروسي مرة أخرى! ولسوف لا يحول بيني وبينها حائل حتى ولو كان أبواب الجحيم!

وهنا يسمع صوتا واضحا آتيا من أعلى يناديه:

– إذن فأذهب!

وينظر أرفيو في دهشة ليرى «آمور» إله الحب منتصبا أمامه وقد أمسك قيثارة ذهبية.

ويأمر إله الحب أرفيو قائلا:

– انزل إلى العالم السفلي، واجعل صوتك وهذه القيثارة يؤثران في حكام الأموات. ولسوف تعود ومعك إيريديس! ويسأل أرفيو في ضراعة:

– أواه.. مرني! ماذا على أن أفعل بعد ذلك؟

فيجيب اله الحب محذرا:

– عليك ألا تحملق في زوجتك قبل أن تصل إلى الأرض، وإلا فقدتها إلى الأبد!

وهنا يقول أرفيو في نجواه:

–وا حسرتاه! كم سيكون حزني عندما أجد إيريديس ولا أستطيع النظر إليها! ولكن الإلهة قد تكلمت، ولسوف أكون شجاعا!

ثم يقبض على القيثارة الذهبية ويمضى وسط البرق والرعد باحثا عن الطريق إلى العالم السفلي.

الفصل الثاني

المنظر - أواب العالم السفلي

تحتشد الأرواح الشريرة أمام أبواب الموت. وهي حينما تثور لا يقوى على كبح جماحها شيء، وعندما تهدأ لتستريح يخيم عليها يأس قاتم، وفجأة يغزو مملكة الظلام صوت ينبعث من قيثارة قريبة. إن الزوج البائس قد وصل!

ويقف أوفيو على مرتفع شاهق وينظر إلى الأعماق السحيقة الممتدة من تحته ثم يتوسل قائلا:

– أيتها الآلهة، دعيني أمر! اشمليني برحمتك!

ويأتيه الرد مصحوبا بقصف رعد شديد:

– كلا!

ويحاول أرفيو أن يخفف من غضب الآلهة قائلا:

– إني أعلم أنك تقاسين مرارة التعذيب، وإن مصائرك قاسية. غير أن مصيري كذلك أقسى من أن يحتمل. فلقد فقدت من أحبها!

وفي النهاية تلين قلوب الآلهة أمام توسلات أرفيو المتلاحقة، فتصدر أمرها قائلة:

– افتحوا الأبواب، واسمحوا له بأن يدخل إلى عالم الأموات!

ويتفقد أرفيو الطريق أمامه، ثم ينزل إلى حيث توجد الأرواح الشريرة وهي تزأر، وتحوم الأرواح حوله وهي تأتي بحركات مروعة مخيفة، ولكن أرفيو لا يحرك ساكنا.

ويحتمل الزوج المنكوب كل أذى في سبيل الوصول إلى زوجته!

الفصل الثالث

المنظر - حقول الجنة

تقوم الأرواح الطاهرة بعدة رقصات في نشوة ومرح، وتغني إحدى الأرواح أغنية عن بهجة الموت بعد أن تعلن قائلة:

– لقد تبددت أحزاننا، ولم يتبق لنا سوى النعيم!

وبينا الحقول يشع منها الجذل والسعادة، يظهر أرفيو وقد ارتسمت على محياه علامات الدهشة فيصيح متسائلا:

– ما أنقى هذا الضوء! وأي مروج باسمة هذه! هل حقا سأجد حبيبتي هنا؟

وتصيح أصوات لا يتبين مصدرها منادية:

– أرفيو! إن إيريديس قريبة منك!

وهنا يتقدم شبح على وجهه خمار تحيط به أرواح طاهرة. إنه شبح إيريديس!

ويحاول أرفيو جاهدا أن يسيطر على الفرح والألم اللذين يعتملان في صدره في آن واحد فيحول نظره عن زوجته.

وإذ ترفع الأرواح الحجاب عن وجه إيريديس، يمسك أرفيو يدها وتبدأ رحلتهما إلى الأرض.

الفصل الرابع

المنظر الأول - كهف في الطريق إلى الأرض

تفشل إرادة أرفيو في اجتياز الامتحان القاسي الذي فرضته عليه الآلهة؛ ففي طريقه عائدا مع زوجته من مملكة الموت، تؤنبه إيريديس طوال الوقت قائلة:

– لماذا أنت غير مكترث هكذا؟ واحسر تاه! لقد كنت أكثر سعادة في مملكة الأموات!

ولا يقوى أرفيو على احتمال لوم زوجته، فيأخذها بين يديه ويضمها إلى صدره. وفي الحال يظهر على وجهها شحوب الموت، ثم تهمس إليه وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة:

– وداعا!... ألا فاذكر إيريديس!

ويصيح أرفيو منتحبا:

– لقد فاضت روحها! ماذا عساي أن أفعل بدونها!

ثم يعقد عزمه على ألا يعيش من بعدها، فيهم برفع خنجره ليطعن به نفسه. ولكن صوتا ينبعث من بين السحب لا يلبث أن يستوقفه. إنه صوت أمور – إله الحب – الذي ظهر لينهيه عن فعلته صائحا:

– كفى! فلقد تحملت أكثر مما يجب، وسوف تكون لك إيريديس!

ويصدر إله الحب إشارة تنهض على أثرها إيريديس من على الأرض وتعانق زوجها. ولا يسع أرفيو إزاء هذا الفضل الذي غمره به آمور إلا أن يعلن أنه وهب نفسه لعبادة «آمور» الرحيم!

المنظر الثاني - حدائق معبد الحب

في مكان مرتفع من حديقة نضرة غناء يقع معبد الحب، وفوق درجاته – التي يحف بها من كلا الجانبين أشجار السرو – يقف تلاميذ آمور ينتظرون مقدمه. وفي النهاية يصل إله الحب متقدما أرفيو وزوجته إيريديس.

وما أن تقع أعين التلاميذ على الحبيبين اللذين وحد بينهما الحب مرة ثانية، حتى ينخرطوا في رقصات ثملة مرحة رائعة. وبينا الزوج المخلص وزوجته يكللان بالأزهار، يعلن التلاميذ عن إخلاصهم ووفائهم إلى ألههم فيقولون منشدين:

– يا إله الحب، دام ملكك إلى الأبد!..

ستار

لاترافياتا .. جيوسيبي فردي

Giuseppe Verdi LA TRAVIATA

تقوم هذه الأوبرا على مسرحية «غادة الكاميليا» La Dame aux Camelias للكاتب الفرنسي «ألكسندر دوماس» (الابن) Alexandre Dumas. وهذه المسرحية التي تعرف اليوم باسم «كاميليا» Camille اقتبسها «دوماس» بدوره من قصة له تحمل نفس الاسم، وهي القصة التي أثارت عاصفة من الإعجاب عند ظهورها عام ١٨٤٨. وقد استوحى دوماس قصته من واقع الحياة: فقد كانت هناك غانية فرنسية تدعى «الفونسين بليسيس» Alphonsine Plessis ظلت تعيش عيشة عبث وصخب حتى ماتت بالسل عام ١٨٤٧. وقد نظم كلمات الأوبرا «فرانشسكو بيافي» Francesco Piave ووضع ألحانها الموسيقي الإيطالي المعروف «جيوسيبي فردي» Giuseppe Verdi وكلمة «لاترافياتا» بالإيطالية معناها «الضالة» أو«الساقطة».

شخصيات الأوبرا:

فيوليتا: غانية عابثة — Violetta

فلورا: صديقتها — Flora

الفيكونت جاستون: من نبلاء فرنسا — Vict. Gastone

ألفريدو: شاب باريسي، وعاشق فيوليتا — Alfredo

البارون دوفول: غريم ألفريدو — Baron Douphol

جورجيو جيرمون: والد ألفريدو — Giorgio Germont

الدكتور جرنفيل: طبيب فيوليتا — Dr. Grenvil

زمن الأوبرا: حوالي عام ١٨٥٠

المكان: باريس

الفصل الأول

المنظر - غرفة استقبال في منزل فيوليتا

ترفع الستار عن فيوليتا الغانية الجميلة وهي تستقبل مدعويها للحفل الذي أقامته لهم، وبعد قليل تصل صديقتها «فلورا» فتقف بجوارها وتسألها:

فلورا: ترى هل يسرك الحفل الذي تقيمينه اليوم؟

فيوليتا: إن السرور هو الدواء الوحيد لما بي من علل وأسقام!

ثم يدخل «الفيكونت جاستون» وبصحبته صديق شاب يدعى «ألفريدو»، وإذ يقدمه إلى فيوليتا يقول لها:

الفيكونت جاستون: إن هذا الشاب معجب بك. ولقد كان يأتي كل يوم للسؤال عنك أثناء مرضك.

وتدعو فيوليتا ضيوفها للرقص في القاعة، ولكن سرعان ما تنتابها نوبة المرض، فتلقي بنفسها في تهالك على الأريكة. ويتجمع حولها كثيرون لمساعدتها. غير أنها ترجوهم الانصراف للرقص، مؤكدة إنها سوف تلحق بهم بعد قليل.

وتنبعث أنغام الموسيقى الراقصة من القاعة، في حين تبقى فيوليتا وحيدة في الغرفة، تنظر إلى وجهها الشاحب في المرآة. هنا يقترب منها «ألفريدو» قائلا:

ألفريدو: إن هذه الحياة التي تعيشينها سوف تقضى عليك. لكم تمنيت أن تكوني ملكا لي لأحافظ عليك!.. دعيني أبوح لك بحبي الذي نبت في قلبي منذ عام مضى!..

ويمضى الحبيب الوله يسرف في التعبير عن شعوره نحوها ويسكب في أذنيها كلمات عذبة لم تتعود سماعها من قبل. لكن فيوليتا ترتاب في إخلاصه.

فيوليتا: يخيل إلي أنك ستنساني سريعا!

ثم تقدم إليه وردة وهي تردف قائلة:

فيوليتا: ردها إلي إذا ذبلت!

ويقبل ألفريدو يدها ثم ينصرف. وهنا يقبل المدعوون يستأذنون في الانصراف ثم يغادرون الغرفة..

ويوشك الفجر أن يطل من السماء وفيوليتا جالسة تفكر في ذلك الشعور الجديد الذي بدأ يجتاحها. ترى هل أحبت ذلك الشاب الذي جاء يعرض حبه عليها؟.. إنها لأول مرة تعثر على الشخص الذي يحب روحها دون أن يطمع في جسدها!

الفصل الثاني

المنظر - حديقة في منزل فيوليتا بالريف

تمضى فيوليتا مع حبيبها ألفريدو ثلاثة شهور في منزلها الريفي قرب باريس، بعيدا عن حياة العاصمة الصاخبة الساطعة. وهي الآن تسأل خادمتها إذا كانت قد رأت ألفريدو منذ خرج في الصباح، فتجيب الخادمة بالنفي وتضيف أن بالباب زائرا.

ولشد ما تكون دهشة فيوليتا عندما يتقدم منها الزائر ويقول أنه والد ألفريدو:

– إن ابني الآن في طريقه إلى الدمار. إنه يهب لك تدريجيا كل ما يملك!

ويعز على فيوليتا هذا القول، فتبرز له أوراقا تثبت أنها تبيع مجوهراتها للإنفاق على حبيبها. ثم تزيد قائلة:

فيوليتا: إنني أحب ألفريدو، وأشعر بأن الله قد صفح عني بعد أن سلكت طريق التوبة!

والد ألفريدو: ولكنك تحولين دون سعادة ابنتي. فهي لاترافياتا لن تتزوج ما لم تطلقي سراح ألفريدو وتخلصي اسمنا من هذا العار!

فيوليتا: إنك يا سيدي لا تعرف مقدار حبي لألفريدو!

ويظل الأب يتوسل إليها أن تتنازل عن حبها، فتضحي في النهاية بسعادتها في سبيل سعادة أخت ألفريدو التي توشك على الزواج. ثم تترك خطابا لحبيبها وتغادر القرية إلى باريس لتعود مرغمة إلى حياتها الأولى.

ويعود ألفريدو من الخارج فيكتشف رحيل فيوليتا، ويعلم أنها ذهبت إلى منزل صديقتها فلورا في باريس. يعلم ذلك من دعوة موجهة إليه هو وفيوليتا، فيظن أنها تركته لحنينها إلى سيرتها الأولى!

الفصل الثالث

المنظر - شرفة في منزل فلورا بباريس

تقول فلورا لمدعويها في الحفل الذي أقامته لهم انهار أرسلت دعوة لفيوليتا وألفريدو لحضور الحفل، ولكن أحد المدعوين يتساءل:

– هلا وصلتكم الأخبار؟.. لقد افترقا!

وتتعالى أصوات المغنيات اللاتي أحضرتهن فلورا لإحياء الحفل..

وفجأة يظهر ألفريدو الذي جاء يتعقب حبيبته ظنا منه أنها هجرته بعد أن ملت عشرته. ثم يتقدم من جماعة المقامرين وينضم إليهم.

وفي هذه اللحظة تدخل فيوليتا وقد أمسكت بذراع «البارون دوفول» الذي لا يكاد يقع بصره على ألفريدو حتى تتأجج في صدره نيران الغيرة ويحذرها من التحدث إليه!

ومرة أخرى تنبعث من الداخل صيحات المرح والضحك والغناء.

ويثير حظ ألفريدو في اللعب حقد البارون دوفول فيدعوه للنزال! ولكن ألفريدو يهزمه هزيمة ساحقة فيقول البارون متحديا:

البارون دوفول: سوف أنتقم لنفسي مرة ثانية!

ويقبل ألفريدو تحديه. وبعد قليل ينصرف المدعوون لتناول العشاء.

وهنا تدخل فيوليتا وقد تملكها قلق شديد. لقد أتت لتحذر الفريدة من المبارزة مع البارون حرصا على حياته.

لكن ألفريدو يجيبها قائلا:

ألفريدو: سوف لا أنسحب إلا إذا عدت معي!

فيوليتا: ولكنني أقسمت إلا أراك!

ألفريدو: ومن الذي اضطرك إلى هذا القسم؟..البارون دوفول؟

ولا يسع فيوليتا إلا أن تخفى عليه الحقيقة فتجيب مرغمة:

– نعم!

وهنا تنتاب ألفريدو ثورة جامحة، فيدعو جميع المدعوين ويقول لهم صائحا كالمجنون:

ألفريدو: هذه هي المرأة التي أنفقت على كل ثروتها... والآن، اشهدوا على أنني أوفيت لها كل ديوني!.. وفي حركة عصبية حانقة يلقي بحافظة نقوده على الأرض.

الفصل الرابع

المنظر - غرفة النوم بمنزل فيوليتا

تعتزل فيوليتا حياة الصخب والسمر وتقطن في مسكن متواضع في أحد أحياء باريس الفقيرة. وهي الآن مريضة استشرت الحمى في جسدها، فرقدت تنتظر وصول الطبيب الذي يقوم على علاجها، ويقبل الطبيب فيعاونها على النهوض من الفراش وهو يقول لها:

الطبيب: تشجعي، فسوف تبرئين عن قريب!

لكن فيوليتا تدرك أنه إنما يموه عليها الحقيقة، فتشكره وترجوه أن يتركها بمفردها.

ويكون ألفريدو قد علم بحقيقة كل ما حدث، وبأن فيوليتا إنما هربت من أجله، فيأتي ليستغفرها. وتحاول المريضة أن تنهض عندما تراه، ولكن قواها تخور فتتهالك ثانية على الفراش. ويرتاع ألفريدو لمنظر حبيبته الذابلة، فيطلب من الخادمة أن تستدعي الطبيب على الفور، ولكن فيوليتا تمنعه قائلة:

فيوليتا: إذا كان مجيئك لا ينقذني، فليست هناك قوة في الوجود قادرة على إنقاذي!

ثم تستجمع قواها، وتنهض وهي مجموعة من الفراش.

وإذ تنجح في التحامل على قدميها، تبتهل إلى الله ألا يدعها تموت في مثل هذه السن الباكرة.

وفي هذه اللحظة يدخل والد ألفريدو، لقد تبين ما في فعلتها من سمو ونبل، فجاء يطلب منها أن تعيش معه كابنة له.

فيوليتا: وا أسفاه!.. لقد جئت متأخرا..

ثم تقدم إليه صورتها وتستطرد قائلة:

فيوليتا: إذا تزوج ألفريدو في يوم من الأيام، فقدمها لزوجته، وقل لها أن صاحبتها تدعو لهما بالتوفيق!

وهنا يظهر الطبيب بالباب، فتصيح فيوليتا وهي في سكرة الموت:

فيوليتا: غريب ذلك الشعور الذي أحس به الآن!... إنني أحس قوة جديدة.. إنها الحياة تسري في بدني من جديد...

ثم تطلق صيحة ترتمي بعدها على الأرض وقد فارقت الحياة...

ستار

لاميرمور .. دونيزبتي لوتشيادي

Donizetti LUCIA DI LAMIMERMOOR

"لوتشيا دي لاميرمور" مأساة غنائية مقتبسة من وراية كتبها الروائي الأسكتلندي "سير وولتر سكوت" Sir Walter Scott اسمها "عروس لاميرمور" The Bride of Lammerinoor وهي تتناول المصير المفجع لحبيبين شابين تنازعت عائلتيهما الأحقاد. وقد نظم كلمات الأوبرا "كامارانو" Cammarano، ووضع ألحانها الموسيقى الايطالي "دونيزيتي" Donizetti، وقدمت لأول مرة على مسرح "سان كارلو" San Carlo بنابولي في سبتمبر عام ١٨٣٥، ثم في لندن عام ١٨٣٨.

شخصيات الأوبرا:

نورمان: قائد الحرس	Norman
لورد هنري أشتون	Lord Henry Ashton
رايموند: معلم لوتشيا	Raymond
لوتشيا: شقيقة لورد هنري	Lucia
أليس: صديقة لوتشيا	Alice

أدجار رافنسوود: عشيق لوتشيا Ravenswood

لورد آرثر بكلو: من نبلاء أسكتلندا Lord Bucklaw

زمن الأوبرا: حوالي عام ١٧٠٠

المكان: أسكتلندا

الفصل الأول

المنظر- الأراضي المجاورة لقصر "رافنسوود"

مضت عدة سنين ولورد هنري أشتون يمقت عائلة "رافنسوود" ويناصب أفرادها العداء، فقد سلبهم السلطة واستولى على حصنهم القديم، ومع ذلك لا يريد أن يقف ببطشه عند حد. فمادام أحد أفراد عائلة رافنسوود باقيا – وهو إدجار رافنسوود- فإن نفسه لن تعرف السلم، ولن تنفذ إلى قلبه الرحمة.

وثمة مشكلة أخرى تحير فكر لورد هنري، وهي أن أحد أعدائه على وشك اعتلاء عرش أسكتلندا. ومعنى هذا أنه مهدد بالنفي من البلاد ما لم يوفق إلى تزويج شقيقته "لوتشيا" من رجل له نفوذ في البلاط الملكي!

ولورد هنري الآن يجول في أراضي رافنسوود، يطرح هذه الأفكار التي تتماوج في ذهنه على "نورمان" قائد حرسه الذي أودع فيه كل ثقته.

ويصرح لورد هنري للقائد قائلا:

لورد هنري: يجب أن نرغم لوتشيا على الزواج!

ويوافق نورمان، غير أن "رايموند" – معلم لوتشيا – يحتج قائلا:

رايموند: أنها مازالت حزينة على فقد أمها. فكيف يمكن أن تفكر في الحب أو الزواج في مثل هذا الوقت؟

ويطلق نورمان ضحكة ساخرة ثم يسأل في دهشة:

نورمان: في الحب؟!.. إنها تحب فعلا إدجار رافنسوود! وهما يتقابلان هنا سرا كل يوم!

ويعضد رواية نورمان جماعة من صيادي الوحوش وقع نظرهم على إدجار راكبا نحو أبواب القصر، وهنا يعصف الغضب بلورد هنري فيقسم ليقتلن إدجار العشيق!

ويحاول رايموند أن يهدئ من ثورته ولكن في غير طائل.

وينصرف اللورد الحانق ومعه قائده نورمان بعد أن عقد العزم على الانتقام. ثم يمضي في أثرهما رايموند.

ولا تكاد الأرض تخلو من لورد هنري وأتباعه حتى تظهر لوتشيا ومعها صديقتها أليس. لقد جاءت تنتظر حبيبها إدجار عند نافورة رافنسوود!

وتحذر أليس صديقتها قائلة:

أليس: كان يجب ألا تحضري إلى هنا. فعليك أن تفكري في غضب أخيك لورد هنري!

وتجيب لوتشيا بقولها:

لوتشيا: يجب أن أنبه إدجار إلى ما يحيق به، فإن كلينا في خطر!

ثم تحدث أليس عن شبح رأته بجوار النافورة، شبح فتاة لقيت حتفها قاتلا! وإذ تنصت أليس إلى قصة لوتشيا يتملكها الخوف ثم تصيح:

أليس: إنني خائفة عليك يا لوتشيا! عودي أدراجك إلى القصر!

وتجيب لوتشيا في عناد:

لوتشيا: كلا! إن نظرة واحدة من إدجار كفيلة أن تبدد كل هذه الهواجس!

وتنصرف أليس وقد استبد بها القلق.

وحالما يصل إدجار ليعلن لحبيبته لوتشيا في أسف:

– يجب أن أغادر أسكتلندا الليلة يا لوتشيا. فإن الواجب يحتم على أن أذهب في مهمة إلى فرنسا. ألا يمكن لنا أن نتزوج قبل الرحيل؟..

وتجيب لوتشيا وهي تتنهد:

– كلا!.. فأنت تعلم مدى كراهية أخي لآل رافنسوود!

إدجار: إذن خذي هذا الخاتم، واعطني في مقابل هذا عهدا. فسوف يجيء اليوم الذي تنتهي فيه هذه الأحقاد وأعود لأطلبك للزواج!

ويتعانق الحبيبان عناق الوداع، ثم يمضي إدجار وهو يقول:

– تذكري انك أعطيت عهدا!

الفصل الثاني

المنظر الأول - جناح في القصر

اطمأن لورد هنري إلى صفاء الجو السياسي الذي كان ملبدا بغيوم الخطر. فقد نجح في إعداد العدة لكي تتزوج شقيقته لوتشيا من أحد نبلاء الدولة البارزين وهو "لورد آرثر بكلو" الذي قرب الآن موعد وصوله لتتم مراسيم الزواج.

ويصرح لورد هنري إلى القائد نورمان قائلا:

لورد هنري: ومع ذلك فإن القلق يساورني. فماذا إذا رفضت لوتشيا هذا الزواج؟ أنها لا تزال تفكر في إدجار!

ويجيب نورمان:

- لا تخف فقد أخفينا جميع الخطابات التي أرسلها إدجار من فرنسا، ومن ثم فإن شقيقتك سوف تظن فيه عدم الإخلاص!

وإذ يغادر نورمان الغرفة لاستقبال لورد آرثر، تدخل لوتشيا وقد ارتسم على وجهها الشحوب والأسى. وتسأل الفتاة أخاها في ضيق وانفعال:

- لم تصر على موقفك هذا؟ إنك تعلم إني أعطيت عهدا لإدجار!

وكأن لورد هنري كان ينتظر من شقيقته هذا القول، فما أن تفرغ من جملتها حتى يظهر لها خطابا مزيفا فحواه أن إدجار قد اختار لنفسه زوجة أجنبية!

وبعد برهة من الصمت الحائر يسال لورد هنري شقيقته، والآن... هل تتزوجين لورد آرثر؟

وتخور الفتاة أمام هذا السؤال، وبخاصة بعد أن ينصحها معلمها رايموند بأن تستسلم لرغبة أخيها، فتتأهب بقلب مثقل حزين للزواج من لورد آرثر.

المنظر الثاني - قاعة في القصر

يصل لورد آرثر إلى "لاميرمور" حيث تصدح الموسيقى وتعد العدة للزواج. غير أنه يحار في تفسير التصرفات الغريبة التي تصدر عن عروسه لوتشيا. فهي تبكي بدون انقطاع، ولا تتحدث إليه إلا لماما.

ولا تكاد لوتشيا تمضي عقد الزواج حتى يسمع باب القصر هرج ومرج.

لقد عاد إدجار من فرنسا ليطالب بحبيبته لوتشيا زوجة له! وما أن يعلم بأنها تزوجت من غيره حتى يصب عليها جام غضبه ويؤنبها في احتقار صارخ وهو يخلع خاتمه من إصبعه ويلقيه في وجهها:

– إليك خاتمك! فأنت خائنة للعهد!

ويستل لورد هنري سيفه، ويتقدم المدعوون من إدجار غاضبين متوعدين. غير أن رايموند لا يلبث أن يتدخل في الأمر بحكمته حقنا للدماء. ويغادر إدجار القصر مسرعا بعد أن يحدد مع لورد آرثر موعدا للمبارزة، في حين تهوى لوتشيا على الأرض وقد خارت قواها.

الفصل الثالث

المنظر الأول - قاعة في قصر لورد هنري

تموج قاعة "لاميرمور" بالمحتفلين بزواج لوتشيا من لورد آرثر. وفجأة يظهر رايموند وفي جعبته أنباء سيئة: فقد قتلت لوتشيا زوجها لورد آرثر بعد أن غمرها الحزن ولم تعد تقوى على احتماله! وحال تدخل لوتشيا القاعة وهي تلهث كالمجنونة والجزع يكاد يقفز من عينيها، ثم تقول بكلمات مذبوحة مرتعشة وكأنها تناجي حبيبها الغائب:

– إدجار!.. إدجار! آن لنا أن نتزوج! ألا ترى الشموع المضاءة وجموع المدعوين.. إن الكاهن مستعد، وها أنذا لك في النهاية!..

ثم ترتمي بين أحضان صديقتها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

المنظر الثاني – مقبرة

يتجول إدجار بين قبور أسلافه آل رافنسوود ينتظر غريمه لورد آرثر، ويفكر في زواج لوتشيا دون أن يعلم المصير المفجع الذي انتهت إليه.

وإذ يرمي ببصره إلى الأنوار المنبعثة من القصر البعيد، يخيل إليه والمرارة تكاد تقطع نفسه، أن لوتشيا بين ذراعي زوجها. وأخيرا يتمتم في يأس:

– سوف أموت من غير صديق يبكيني. فإن القبر ينتظرني!

وفجأة تقع عينيه على بعض أشخاص مرتدين ملابس الحداد قادمين من جهة لاميرمور. وإذ يقتربون من المقبرة يسأل أحدهم:

– لم تنتحبون؟

– إنها لوتشيا!. لقد أفقدها الحزن صوابها!

وتبرق في ذهن إدجار فكرة الاندفاع إلى القصر ليرى حبيبته مرة أخيرة عسى أن يصلح ما أفسده عليه الماضي. غير أن رايموند يقترب منه ويحول بينه وبين تحقيق ما يريد:

– لقد سبق السيف العذل، فقد ماتت لوتشيا!

ويصيح إدجار منتحبا:

– إذن لم يعد لي شيء على الأرض. فبغير لوتشيا لا يمكن أن أعيش!

وقبل أن تمتد إليه أيدي رايموند والأتباع لتمنعه، يكون إدجار قد أغمد خنجره في صدره وخر صريعا بين القبور..

ستار

فاوست .. شارل جونود

Charles Gounod FAUST

فكرة هذه الأوبرا مأخوذة من قصة قديمة يرجع عهدها إلى العصور الوسطى، وهي القصة التي خلدها الشاعر الألماني المشهور "جوته" Goethe في مسرحيته التي تحمل نفس الاسم. وقد نظم كلمات الأوبرا "باربييه" Baroier "وكاريه" Carre، ووضع ألحانها الموسيقي الفرنسي "شارل جونود" Charles Gounod، وقدمت لأول مرة في باريس عام ١٨٥٩.

شخصيات الأوبرا:

فاوست: فيلسوف	Faust
مفيستوفيليس: الشيطان	Mephistopheles
فالنتان جنود	Valentin
فاجنر جنود	Wagner
سيبيل جنود	Siebel
مارجريت	Marguerite

جنود – كهنة – ملائكة – شياطين

زمن الأوبرا: القرن السادس عشر

المكان: ألمانيا

الفصل الأول

المنظر الأول - غرفة مكتب

فاوست فيلسوف، أنفق عمره في دراسة اللاهوت والروحانيات، وهو الآن كهل احتفرت التجاعيد وجهه، يفكر في أيام الشباب التي ولت دون أن يتمتع بها. ويسمع وهو جالس إلى مكتبه أصوات الفلاحين وهم يعملون في الحقول ويغنون في نشوة ومرح، فيتلوى الحقد في نفسه ويصبح في حنق:

فاوست: ألا سحقا للإيمان!.. أيها الشيطان ملاك الشر أظهر لي!.

ويقطع سكون الغرفة صوت كالرعد:

الشيطان: هأنذا موجود!

ويرتعد فاوست حينما يبصر "مفيستوفيليس" أمامه.

فاوست: ألا فارغب عن ناظري!

الشيطان: ماذا؟! هل تستدعيني ثم تطلب مني أن أذهب عنك؟ تذكر أنني أستطيع أن أجلب لك الذهب، والقوة، والمجد!

فاوست: لا أريد شيئا من هذا. إنما كل ما أبغيه فجاجة الشباب!

الشيطان: حسنا! سوف يكون لك كل ما تريد، وسيكون أجري بسيطا أنا أخدمك على الأرض، وأنت تجيبني إلى ما أطلبه منك!

ويقدم الشيطان لفاوست كأسا لا يكاد يكرعها حتى يجري في شرايينه دم الشباب الحار.

الشيطان: هيا بنا اتبعني!

ويتبع فاوست الشيطان إلى حيث مباهج الحياة!

المنظر الثاني - سوق المدينة

تغص السوق بالجنود الذين أوشكوا على مغادرة المدينة إلى الحرب. الحركة والمرح يغمران المكان، ولكن أحد الجنود – فالنتان– يبدو على وجهه الهم والكآبة. وإذ يسأله صديقاه فاجنر وسيبيل عن سبب حزنه يجيب:

– من الذي سيعني بشقيقتي مارجريت عندما أذهب للحرب؟

– إننا جميعا سنقوم على خدمتهاّ..

وهنا يظهر "مفستوفيليس" من حيث لا يشعر بمقدمه أحد، وينضم إلى ثلة الجنود، ثم يبدأ يغني أغنية فيها كثير من التبذل والمجون. وعندما يفرغ منها يقدم للجميع كؤوس الخمر، ويرفع كأسه إلى فمه ويقول:

– نخب مارجريت!

ويسحب فالنتين سيفه، ولكنه لا يكاد ينظر فيه حتى يتبين أنه قد كسر! وهنا يدرك الجنود أنهم في حضرة شيطان يرتدي ملابس آدمي! فيغادرون المكان وقد تملكهم الرعب.

وفي هذه اللحظة يأتي فاوست باحثا عن صديقه الشيطان، وإذ يراه يسأله:

فاوست: متى سأرى مارجريت؟

الشيطان: إنها ستكون هنا بعد قليل!

ويظهر من بعيد الجندي سيبيل. لقد جاء يترقب مارجريت التي جن بحبها.

وبعد قليل تأتي مارجريت في طريقها ذاهبة إلى الكنيسة، فيتقدم منها فاوست ويسألها:

– هل أرافقك؟

وترفض مارجريت، فيبقى فاوست يتبعها بعينيه الجائعتين ويقول:

– لقد أحببتها!

الفصل الثاني

المنظر - حديقة منزل مارجريت

يذهب الجندي العاشق سيبيل إلى منزل حبيبته فيترك باقة من الزهر على عتبة الباب علامة على حبه لها، ثم ينصرف.

وهنا يصل مفستوفيليس وفاوست فتقع عيناهما على باقة الورد. ويسخر الشيطان من هذه الهدية المتواضعة، فيعد بأن يقدم لمارجريت هدية أكثر منها قيمة وإغراء. ويختفي لحظة ثم يعود حاملا علبة مملوءة بالمجوهرات ليكسف بها هدية الجندي التافهة!

وتصل مارجريت فتعثر على علبة المجوهرات فوق عتبة الباب. وفي هذه اللحظة يظهر لها فاوست ويحدثها قائلا:

فاوست: إنك وحيدة!

مارجريت: نعم، فقد ماتت أمي وذهب شقيقي إلى الحرب.

ويقدم فاوست يده إلى الفتاة ثم يتجول معها بين أشجار الحديقة.

ويسر الشيطان – الذي يبقى مختفيا يراقب الحبيبين – للتأثير الناجح الذي أحدثته المجوهرات، فيأمر الأزهار بأن ترسل عبيقا يزكي حب مارجريت لفاوست!

ويعود الحبيبين بعد قليل، فتستأذن مارجريت في الانصراف وتصعد إلى منزلها بعد أن تعد فاوست بمقابلته في اليوم التالي.

وهنا يظهر الشيطان ويوجه كلامه إلى فاوست مؤنبا:

الشيطان: ألا تدرك أن الفتاة ملك لك؟!

ثم يشير إلى غرفة نومها. ويتسلق فاوست إلى مخدع مارجريت وقد تأججت شهوته، فيجدها تطل من النافذة وتنظر إلى النجوم وهي سابحة في ذرى الخيال...

الفصل الثالث

المنظر الأول - كنيسة

استسلمت مارجريت لفاوست، ولكنه هجرها بعد أن قضى وطره منها... وهي الآن جاثية في الكنيسة تطلب من الله أن يغفر لها ذلتها ودموعها سيول لا يقف لها انصباب.

وفجأة تسمع صوتا يصيح:

– كفى صلاة، فإنه لن يغفر لك!..

وترتعد الفتاة البائسة وتصيح:

– رباه! أي مصير ذلك الذي ينتظرني؟!

ويسمع صوت خافت حزين. إنه صوت الكهنة يرتلون للصلاة

ومرة أخرى يرتفع صوت الشيطان!

– ودعي ليالي الحب يا مارجريت، فإن روحك الآن ملعونة!

وتخر الفتاة على الأرض والخوف يرعش أطرافها.

المنظر الثاني – ميدان عام

تبتهج المدينة بعودة الجنود من الحرب. ويعلم فالنتان – شقيق مارجريت – بما حدث لشقيقته، فما أن تقع عينه على فاوست حتى يدعوه للنزال، ولكن قوة فاوست الشيطانية تقهر الجندي فيقع على الأرض بين الحياة والموت. ويتجمع الجنود حول زميلهم المصاب، وتسرع مارجريت نحو مصدر الاستغاثة. ولكن فالنتان لا يكاد يراها حتى يقول في صوت خافت مذبوح:

فالنتان: إليك عني! لقد قتلني عشيقك. ولو أن الله قد يغفر لك، إلا أنني ألعنك بكل ما تبقى لي من أنفاس.

وتتعثر الفتاة وهي تتجه نحو منزلها وتجهش ببكاء هستيري أليم.

المنظر - السجن

تثبت على مارجريت تهمة قتل الطفل الذي أنجبته سفاحا من فاوست، فتزج في السجن في انتظار صدور حكم الإعدام. ويتسلل فاوست خلسة مع مفستوفيليس ليحمل حبيبته على الفرار، فيجدها راقدة على فراش من القش.

فاوست: هيا بنا، يجب أن نهرب!

وترتاع الفتاة لمنظر الشيطان الماثل أمامها، فتصيح والخوف يرتج فوق شفتيها: الشيطان!

ثم تجثو على ركبتيها وتسترفد رحمة الله.

فاوست: مارجريت! يجب أن نبرح من هنا!

مارجريت: ألا أغرب عني، فإنني أمقت رؤيتك!

ثم تطلق صيحة جنونية تسقط بعدها على الأرض وقد فارقت الحياة.

ويقول الشيطان في جذل:

– إن روحها لي!

ولكن أصواتا سماوية غير منظورة تجيبه منشدة:

– كلا! فإن مصيرها الخلاص!

ستار

التروفاتوري .. جيوسيبي فردي

Giuseppe Verdi IL TROVATORE

"التروفاتوري" مأساة غنائية في أربعة فصول تدور حول طفل من النبلاء اختطفته إحدى الغجريات بقصد الانتقام. وقد كتبها "كامانارو" Cammanaro، ووضع ألحانها الموسيقي الإيطالي المشهور "جيوسيبي فردي" Giusppe Verdi. وقدمت لأول مرة على مسرح "أبولو" Teatro Apollo بروما في **١٩** يناير عام **١٨٥٣**. وكلمة "تروفاتوري" بالإيطالية معناها "مغني جائل" وهو نوع من المغنين انتشر في أوروبا في القرون الوسطى وبخاصة في فرنسا وإسبانيا.

شخصيات الأوبرا:

فيراندو: قائد الحرس	Ferrando
ليونورا: سيدة نبيلة من "أراجون"	Leonora
اينيزا: وصيفتها	Inez
كونت دي لونا: من النبلاء	Cont di Luna
مانريكو: مغني جائل، وشقيق الكونت دي لونا	Monrico

أتزوتشينا: غجرية Azucena

رويتز: صديق مانريكو Ruiz

زمن الأوبرا: القرن الخامس عشر

المكان: مملكتا "بسكاي" و"أراجون"

المنظر الأول - دهليز في قصر اليافرا

تدق الطبول مرتين، ثم تتبعها الأبواق، فيسود المكان جو الفروسية.

أوشك الليل أن ينتصف. جنود وأتباع الكونت دي لونا جالسون في قاعة القصر وقد بدأ يغلبهم النعاس. وليس هناك من ظل ساهرا سوى فيراندو قائد الحرس.

– هيا انهضوا! فإن الكونت قد يحضر هنا في أية لحظة!

ويهب الأتباع واقفين، وتبدأ ألسنتهم تلوك سير سيدهم – كيف يظل ساهرا كل ليلة تحت نافذة حبيبته، وكيف لدغه عقرب الغيرة حينما بدأ يغازلها التروفاتوري– أي المغني المتجول – مانريكو. ولكن حديثهم لا يلبث أن يخفت ويبدأ الكرى يداعب أجفانهم من جديد.

– اجعلنا متيقظين دائما يا فيراندو! لسرد علينا قصة، ولتكن قصة شقيق الكونت سيء الحظ!

ويبدأ القائد قصته:

اقتحمت غجرية ذات يوم قصرنا، ودخلت عنوة حجرة الصغير جارسيا دي لونا – شقيق الكونت، وسحرته. ومن حسن الحظ أننا

استطعنا القبض عليها. ولكن منذ ذلك اليوم وصحة الطفل تهوي إلى الحضيض. وقد أعدمت الغجرية العجوز. ومع ذلك لم تنته مصيبتنا عند هذا الحد، فقد خطفت ابنتها الغليظة القلب الطفل وحرقته في نفس المكان الذي لقيت فيه أمها حتفها!

وتسرى اليقظة في وجوه الأتباع فيسألون قائدهم:

– وهل ألقي القبض على الابنة؟

– كلا! فقد مكثنا نبحث عنها عدة سنين، وكان يمكن أن أعرفها لو أنني رأيتها، ولكن بحثنا كان نصيبه الفشل!

ويبدأ الظلام الحالك من جهة، وقصة فيراندو القاتمة من جهة أخرى، يؤثران في أعصاب الجنود المتعبين، فما أن تدق الساعة اثنتي عشرة دقة معلنة منتصف الليل، حتى يعلو صراخهم، فيهرعون إلى أبواب القصر يوصدونها وهم فزعين:

– فلتحفظنا السماء من الأرواح الشريرة!

المنظر الثاني – حدائق قصر اليافرا

ملكة أراجون تقيم الآن في قصر اليافرا، تنتظر نتيجة الحرب الأهلية التي مزقت شمل إسبانيا؛ فقد كانت أراجون وبسكاي تحارب كل منهما الأخرى .

وتعمل في خدمة الملكة سيدة نبيلة تدعى ليونورا. وقد اصطحبت هذه النبيلة رفيقة لها تدعى اينيز وتسللت خلسة من القصر إلى الحديقة لمقابلة المغني (التروفاتوري) الذي اعتاد أن يغني لها تحت جنح الليل. وتبدأ الصديقة اينيز تسدي النصح إلى الحبيبة الولهة ليونورا:

اينيز: ليونورا! إنك متهورة حمقاء! فلتنس هذا الغريب.

ليونورا: لا أستطيع، فإني أحبه!

وفي انتظار الحبيب، تنتحيان جانبا من الحديقة، وتختفيان بين أغصان الشجر.

وحالما يظهر الكونت دي لونا في الحديقة يشق طريقه بين الأشجار. لقد جن هو الآخر بحب ليونورا، وعقد العزم على أن لا يثنيه عن الاقتران بها أي شيء.

ويمكث برهة يحدق النظر في نافذة حجرتها المضاءة. ولكن تلك اللحظة السعيدة لا تلبث أن يفسدها عليه صوت قيثارة قريبة

– ويلي!... إنه التروفاتوري!

ويشق الظلام غناء حزين، فتعرف ليونورا أنه حبيبها المغني مانريكو، فتهرع من غرفتها لتعانق الكونت دي لونا الذي تخطئ وتظنه حبيبها! ولشد ما تكون دهشتها حينما يظهر حبيبها الحقيقي التروفاتوري مانريكو!

وفي الحال يدعوه الكونت للنزال، ويسأل في لهجة ملؤها الحنق والتحدي:

– من أنت؟ إنني أسألك الإفصاح!

ويرفع المغني خوذته، ويكشف عن شخصيته، فيقول إنه يدعى مانريكو، وإنه فارس عدو يعمل في خدمة بسكاي. وعندما يشتد الحنق بالكونت، يسحب مانريكو سيفه.

وعبثا تحاول الحبيبة ليونورا أن تفرق بين العاشقين الغريمين، فتبدأ بينهما مبارزة حامية.

الفصل الثاني - الغجرية

المنظر الأول - في جبال بسكاي

ينتصر المغنى مانريكو في المبارزة مع الإبقاء على حياة خصمه. ولكن الكونت دي لونا لا يقدر هذا الصنيع من التروفاتوري، فيرسل قواته لمطاردته حتى يهزموه ويتركوه بين الحياة والموت في ساحة القتال في "بليلا". وتأتي الغجرية "أتزوتشينا" – التي كانت قد احتضنته في صغره – فتنقذه وتعنى به. ويبدأ مانريكو حياة التجوال بين جبال بسكاي. وهو الآن راقد وسط جماعة الغجريات يستمع إلى الغناء.

وتجلس الغجرية "أتزوتشينا" منعزلة، تحدق النظر في النار المشتعلة، وتتذكر ذلك اليوم المشئوم – منذ عدة سنوات – حيث لقيت أمها حتفها محترقة في قصر الكونت دي لونا. وحينما تكف بقية الغجريات عن الإنشاد، تغني هي أغنية حزينة تحمل معنى الانتقام. وهنا يبدو لها – في شكل رؤيا – جسد أمها وقد أخذت تلتهمه النيران. وترحل جماعة الغجريات. ولكن أتزوتشينا لا تكاد تلحظ رحيلهم، وإنما تظل ساهمة النظر، تفكر في أمها، وفي الانتقام الذي أشارت به وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. ويتخلف مانريكو مع الغجرية، فهو يعتقد اعتقادا راسخا أنه ابنها ومن ثم يتوسل إليها أن تفضي إليه بالسر الذي ينهب عقلها. وتحدثه الغجرية قائلة:

"عندما قتلوا أمي، خطفت الطفل شقيق الكونت دي لونا للانتقام. وكنت أريد أن أحرقه حيا. ولكن – ويا لسوء الحظ – حينما بدأت النيران تشتعل، ظهرت رؤيا أمي أمام عيني ففقدت وعيي، وبدلا من أن أقذف الطفل جارسيا إلى النيران ألقيت بابني بدلا منه!"

وهنا يصيح مانريكو:

– إذن... ألست أنا ابنك؟!

وتحملق أتزوتشينا في وجه المغني، ولكن إذ تنكشف لها الحقيقة تلجأ إلى الكذب.

– بالتأكيد أنت ابني! ألم أنقذك من ساحة القتال في بليلا؟ ألم أظهر لك دائما الحنان كله؟

وفي تلك اللحظة تسمع أصوات أبواق من الوادي الذي يمتد تحتهم. إنها علامة وصول رويتز – صديق مانريكو – الذي أتى يحمل إليه رسالة:

"لقد احتل جيشنا حصن كاستيلور. وأصدر الأمير أمره بأن تحضر من فورك لتتولى القيادة"

وفجأة يصيح مانريكو حينما يصل في الرسالة إلى نهايتها: مانريكو: تظن ليونورا إنني قتلت في المعركة! وهي لذلك سوف تدخل الدير الليلة!

ويتأهب التروفاتوري للرحيل. وعبثا تحاول الغجرية أتزوتشينا أن تثنيه عن عزمه. ذلك أنها تشتم من تلك الفعلة شرا مستطيرا. والحقيقة إنها تحبه على الرغم من أنه ينحدر من عائلة دي لونا التي قتلت أمها.

ويصيح التروفاتوري في يأس:

مانريكو: لا أستطيع البقاء! وداعا يا أماه!

ثم يندفع إلى السهل تاركا الجبل من ورائه.

المنظر الثاني - رواق في أحد الأديرة قرب كاستيلور

يعلم الكونت دي لونا عن عزم ليونورا اعتزال العالم. وتدفعه رغبته في العمل على إحباط خطتها إلى أن يختبئ داخل الدير بصحبة قائد حرسه فيراندو وبعض الأتباع. وفي انتظار مقدمها يحدث نفسه قائلا:

- كلا يا ليونورا! فما من أجلك لخلق الدير!.. إنني أقسم أنك سوف تكونين لي!

وتقترب ليونورا بصحبة وصيفتها اينيز. وفي لهجة مفعمة باللوعة والحرقة تتنهد بعمق وهي تقول:

ليونورا: لم يبق لي الآن أي شيء! فقد مات مانريكو، ولم يعد لي من ملجأ سوى الدير!

ثم تستأذن وصيفتها في الدخول إلى ذلك العالم الصغير الذي قررت أن تمضي فيه بقية حياتها.

ولكنها لا تكاد تهم بالدخول حتى يفاجئها الكونت دي لونا وأتباعه، فيلقون القبض عليها. وفي تلك اللحظة الحاسمة يصل مانريكو على رأس جنود بسكاي، فيخلص ليونورا من أيدي الكونت!

المنظر الأول - معسكر قرب كاستيلور

يحمل مانريكو حبيبته ليونورا إلى حصن كاستيلور، ولكن شبح الخطر لا يزال قائما ماثلا أمام الحبيبين. فها هم جنود الأعداد يكمنون خارج جدران الحصن، وها هو ذا الكونت دي لونا ينصب لنفسه خيمة في مكان قريب. ويسمع مانريكو الكونت وهو يصيح:

– إنها هناك! هناك بين أحضان غريمي! أواه يا ليونورا!

ويقطع عليه تفكيره صوت هرج في المعسكر، فقد حضرت الغجرية أتزوتشينا مقبوضا عليها بتهمة التجسس، وقادها فيراندو رئيس الحرس إلى الكونت ليصدر حكمه عليها.

ولكن الكونت لا يكاد يتفرس في قسمات وجهها حتى يصبح مذعورا:

الكونت دي لونا: إنها تلك المرأة بعينها! فعلى الرغم من أن السنين قد انقضت إلا أنني أتذكرها تمام. أنها قاتلة "جارسيا" شقيقي. الق القبض عليها، فلسوف تلقى حتفها!

وفي ثورة من الانفعال تنسى أتزوتشينا نفسها فتذر اسم مانريكو:

أتزوتشينا: ابني العزيز! أين أنت؟! ألا فاحضر لتنجدني وتخلصني من هؤلاء الطغاة!

ويقف الكونت مشدوها أمام هذا التصريح!

الكونت دي لونا: إذن فأنت أم مانريكو!

ثم يأمر باقتيادها وهو يقول لها:

الكونت دي لونا: سوف أنتقم قي شخصك!

المنظر الثاني – قاعة ملاصقة لكنيسة كاستيلور

يعتزم مانريكو وليونورا تتويج حبهما بالزواج على الرغم من أن المعركة لا تزال تدور رحاها والعدو يهددهم باحتلال الحصن بين لحظة وأخرى، ولكن فكرة الزواج تبدد تلك المخاوف، فيدخلان الكنيسة غير عابئين بشيء.

وفجأة يظهر رويتز صديق مانريكو:

رويتز: مانريكو! لقد أسرت أمك، وسوف يحرقونها حية! وينسى مانريكو كل شيء – زواجه من حبيبته ليونورا، وسلامته الشخصية من الأعداء المحيطين به، ويقسم لينقذن أتزوتشينا. ويلتف حوله أتباعه المخلصون وهم يصيحون:

– فلنكن لك مخلصين حتى النهاية!

وينطلق جنود بسكاي على رأس مانريكو شاهرين سلاحهم لتلخيص أتزوتشينا!

المنظر الأول - جناح في قصر اليافرا

يفشل مانريكو في مهمته ويقع أسيرا في أيدي الكونت دي لونا. وهو الآن سجين في برج معتم في قصر الكونت.

الليل يلتطم حول المكان، وليس هناك من ضوء سوى ذلك المشعل الخافت الذي يقترب وئيدا. إنها ليونورا!.. نعم، ها هي ذي تتقدم ومعها صديق مانريكو المخلص رويتز.

لقد هربت من كاستيلور لتلحق بحبيبها المفجوع. إنها ترتعد وهي تسمع في طريقها الصلوات التي تقام للموتى. وحينما ينبعث صوت حبيبها المغني من البرج مرددا أغنية حزينة، تهتاج مشاعرها ويدب اليأس في قلبها.

وهنا يخرج الكونت دي لونا من القصر في طريقه إلى البرج ليرى مانريكو. فتتقدم منه ليونورا وتطلب منه الصفح عن حبيبها المغني.

ليونورا: أفرج عنه، وسوف أكون ملكا لك بعد ذلك!

ولا تنقضي فترة طويلة حتى يوافقها الكونت على رأيها. ولكنها لا تلبث أن تردف قائلة:

– غير أن هناك شرطا واحدا. وهو أن تسمح لي بالدخول لأطلق سراح مانريكو بنفسي. وبعد ذلك تستطيع أن شئت أن تأخذني!

ولا يسع الكونت إلا الموافقة. فإن فكرة الاستيلاء عليها لا تدع لديه مجالا للتردد. ولكنه في نشوة الفرح لا يلحظها وهي تتجرع السم الذي كانت تضعه في خاتمها!

الكونت دي لونا: دعينا ندخل! فسوف تكونين لي في النهاية!

المنظر الثاني - السجن

أتزوتشينا الغجرية سجينة الآن مع مانريكو بعد أن ألقي القبض عليها، ولكن قسوة السجن التي لم تتعودها من قبل تؤثر في قواها العقلية فيصيبها نوع من الجنون. غير أن مانريكو يواسيها ويغني لها واعدا إياها بأن يخلصها من العذاب ويحملها مرة أخرى إلى حيث الحرية في جبال بسكاي. وتخدعها صورة المستقبل الساحرة، فتهدأ أعصابها وتستسلم لنوم عميق، وهنا يفتح الباب فيسفر عن ليونورا وهي تقول في لهفة:

ليونورا: هيا أسرع! لقد أطلق سراحك، فلتهرب!

ويحملق مانريكو في وجه حبيبته من فرط الدهشة. ولكنه لا يلبث أن يسألها:

مانريكو: من الذي أرسلك؟ وكيف تم إطلاق سراحي؟!

ولكن ليونورا تظل صامتة لا تجيب، فينفعل مانريكو ويصيح مستنكرا:

مانريكو: لقد بعت نفسك! ألا فاغربي عن وجهي!

ويزيد اضطراب ليونورا ولعثمتها، ويكون السم قد ظهر تأثيره على جسدها الذي لم تعد تتحمله ساقاها فتهوي إلى الأرض، وهنا فقط يدرك مانريكو أي ثمن دفعته حبيبته من أجل خلاصه.

وتحس ليونورا ببرودة الموت تفري جسدها فتهمس إلى حبيبها:

– إنني أموت يا مانريكو.. وداعا يا حبيبي!

وفي الوقت الذي يبقى فيه مانريكو ساهما، يظهر بباب الغرفة الكونت دي لونا ومعه أتباعه.

– احملوا هذا الرجل إلى المقصلة!

وينفذ أمر الإعدام في مانريكو..

ويعود الكونت إلى غرفة السجن ليوقظ الغجرية من سباتها ثم يحثها على أن تطل معه من النافذة، فيقول لها وقد اجتاحته فكرة الانتصار:

– انظري! لقد أمرت بإعدام ابنك!

وترتسم على وجه الغجرية علامات لا يتبين كنهها الكونت فتقول وهي تطلق ضحكة ساخرة جنونية:

- ابني؟ كلا.. أنه لم يكن سوى أخيك!

ثم تبتعد من الكونت المفجوع وتقترب من النافذة. وإذ تحملق ساهمة في المقصلة، تقول كأنها تستجمع شوارد ذكرياتها:

- لقد انتقمت لك يا أما!..

ستار

مينون .. أمبرواز توماس

Ambroise Thoma MIGNON

هذه الأوبرا مقتبسة من مسرحية "فلهلهم ميستر" Wilhelm Meister للشاعر الألماني المعروف "جوته" Goethe. وقد وضع ألحانها الموسيقي الفرنسي "أمبرواز توماس" Ambroise Thomas، وقدمت لأول مرة على مسرح "أوبرا كوميك" Opera Comique بباريس في نوفمبر عام ١٨٦٦.

شخصيات الأوبرا:

لوثاريو: عازف قيثارة مسن — Lothario

فيلين: ممثلة — Philine

لايرتي: زميل فيلين — Laerte

جارنو: رئيس جماعة الغجر — Jarno

مينون: فتاة غجرية — Mignon

فلهلم ميستر: شاب ثري من فيينا — Wilhelm Meister

فردريك: معجب بفيلين Frederic

زمن الأوبرا: القرن الثامن عشر

المكان: ألمانيا وإيطاليا

الفصل الأول

المنظر - حانة في الريف

تغص الحانة بلفيف من المسافرين وأهل البلدة وبعض الغجريات والمغنيات وعلى رأسهن الممثلة "فيلين" وزميلها "لايرتي". وفجأة يقطع جو المرح الصاخب أنغام حزينة منبعثة من قيثارة العازف المسن "لوثاريو". إنه كئيب شارد الفكر منذ أن فقد ابنته "سبيراتا" التي حاول العثور عليها دون جدوى. وتتساقط نفسه غما وحزنا عندما يبصر أمامه غجرية شابة تدعى "مينون" تشبه ابنته الضالة وفي نفس سنها.

ويصيح "جارنو" رئيس الغجر:

– هيا يا منون!

وهنا تتقدم من حلبة الرقص فتاة وادعة فاتنة يعلو وجهها كثير من الحياء.

مينون: كلا، لن أرقص!

ويهم جارنو برفع عصاته ليهوي بها على جسد الفتاة. إلا أن "فلهلم ميستر" الشاب الذي قدم من فيينا، يتقدم منه شاهرا مسدسه.

فلهلم: دعها تذهب!

ويخضع جارنو لتهديد فلهلم.

وينصرف الجالسون، فلا يبقى في الحانة سوى الممثلة فيلين التي تود التعرف بذلك الشاب الجرئ "فلهلم"! وتنجح خطة الممثلة في تحقيق غرضها، فترسل زميلها "لايرتي" ليشتبك معه في حديث، ثم تمر أمامها وكأن مرورها جاء عفوا، فيقدمها لايرتى إليه ثم يدير زمام الحديث في لباقة وبراعة. إلا أن فيلين بمكرها ودهائها تستأذن في الانصراف حين تلحظ إعجابه بها حتى تزيد من شوقه إليها! ويبقى الشاب بمفرده. وهنا يبصر فتاة ترقبه في غفر وحياء فيسألها:

فلهلم: ما اسمك؟

مينون: إنهم يدعونني مينون!

فلهلم: من والدك، ومن أين أتيت؟

مينون: لا يعلق بذهني من هذا إلا شيء واحد..

وتنشئ الفتاة تتحدث وكأنها غارقة في لجة حلم لذيذ، عن أرض بها أشجار برتقال في لون التبر، وسماء جلواء صافية، وحدائق نضرة جميلة.. إنها الأرض التي ترعرعت فيها في كنف والديها، ثم تتذكر قصرا ذا أعمدة رخامية، وبحيرة ساجية رقراقة..

مينون: وا حسرتاه! لم لا أعود إلى ذلك الشاطئ السعيد؟ لكم أتمنى أن أعيش وأموت هناك!

وهنا يأتي رئيس جماعة الغجر ليأخذ مينون. لكن فلهلم يقول له محتدا:

فلهلم: انتظر، فسوف أعتقها وستصبح حرة من اليوم!

وتصيح الفتاة في نشوة وكأنها لا تصدق ما حدث:

مينون: هل حقيقة أصبحت حرة؟!

وفي فرح جنوني تتقدم من "لوثاريو" عازف القيثارة المسن الذي تراه مقبلا على بعد من فناء الحانة.

مينون: لقد تحررت! أواه، لقد ساعدتني أنت أيضا. هيا تقدم وشاركني سعادتي!

لكن العازف الحزين يجيب قائلا:

لوثاريو: لا أستطيع البقاء هنا، بل يجب أن أحلق عاليا مع الطيور الحزينة!

ثم يرتفع صوته بغناء ساهم حزين.

وفجأة تنبعث من داخل الحانة ضحكات صاخبة، وتتلوى الغيرة في نفس الفتاة عندما تتبين أنها ضحكات الممثلة فيلين.

مينون: هيا بنا يا لوثاريو، فلنبتعد عنها!

ويتوارى الاثنان بعيدا وراء الحانة، في حين تظهر فيلين ومعها "فردريك" — أحد المعجبين. وعندما تقع عين الممثلة على فلهلم تومئ إليه.

فيلين: أود أن أعرفك بفردريك!

ويواجه كل من المعجبين الآخر بنظرات عدائية ملتهبة!

وهنا يأتي الممثل لايرتى لينادي فيلين

لايرتى: فيلين! لقد دعانا البارون لإحياء حفل تمثيلي في قصره!

فيلين: هذا رائع! فسوف نمثل "حلم منتصف ليلة صيف". وأما أنت يا عزيزي "فلهلم ميستر" فإننا نرحب بلحاقك بنا هناك!

وينصرف فردريك والغيرة تسحق قلبه، في حين يبقى فلهلم وقد عقد العزم على تلبية دعوة فيلين. إلا أن خاطرا يومض في ذهنه: ماذا يفعل بالفتاة التي اشترى حريتها منذ قليل؟!

وتتوسل إليه مينون قائلة:

– خذني معك، سوف أتنكر في زي خادم!

ويتردد فلهلم بادئ الأمر، لكنه لا يلبث أن يصحب مينون ليلحق بفرقة فيلين. ولا يبقى في الحانة سوى لوثاريو عازف القيثارة الحزين.

الفصل الثاني

المنظر الأول - غرفة ملابس

تجلس الممثلة فيلين أمام المرآة لتتزين استعدادا للحفل وهي تتحدث مع زميلها لايرتى. ويسمع طرق على الباب ثم يظهر فلهلم ميستر ومعه مينون متنكرة. إلا أن جمال فيلين الصارخ ينسيه الفتاة الوادعة التي معه. وينصرف لايرتى، فتخبر فيلين فلهلم أن البارون يود أن يراه، فيخرجان معا وتبقى مينون بمفردها.

وتتقد مينون نحو مائدة الزينة بدافع حب الاستطلاع، فتضع على وجهها بعض المساحيق والعطور، ثم تنظر إلى نفسها في المرآة، فتتبين أن بوجهها شيئا من الفتنة! وتجتاحها رغبة جامحة في أن تعرف حقيقة العلاقة بين فلهلم وفيلين فتختفي داخل صوان الملابس. وبعد قليل يدخل فردريك وهو يصيح:

فردريك: وهكذا جعل عمي البارون من هذا الماخور مأوى لفيلين!

وفي هذه اللحظة يدخل فلهلم، وإذ يبصر فردريك يقول له والغضب يقفز من عينيه:

فلهلم: ماذا تفعل هنا؟

فردريك: إنني أسألك نفس السؤال!

ويستل فردريك سيفه، ولا تكاد المبارزة تبدأ بينهما حتى تخرج مينون من مكمنها. وينسحب فردريك، فيسأل فلهلم مينون في حدة:

فلهلم: ما الذي دعاك إلى كل هذا؟

وبعد جدال قصير بينهما تدخل فيلين ومعها فردريك. لكن مينون لا تكاد تقع عينها على فيلين حتى تنفعل وتأتي بحركات عصبية ظاهرة، فتسأل فيلين فلهلم:

فيلين: أظنها تغار مني؟!

ولأول مرة يدرك فلهلم أن مينون امرأة كاملة الأنوثة تحس بالغيرة مثلما تحس سائر النساء!

المنظر الثاني – حديقة قصر البارون

في سرادق فخم متألق، تمثل الفرقة مسرحية "حلم منتصف ليلة صيف"

وفي مكان منعزل عن الحديقة تتجول مينون وقد تأججت في صدرها نيران الشوق لرؤية فلهلم. وتزيد صيحات المتفرجين وهتافاتهم للممثلة فيلين من غيرة الفتاة وألمها.

وفجأة تسمع نغمات شجية تنبعث من قيثارة قريبة. أنها قيثارة لوثاريو العازف المسن. فتتقدم منه لتشكو إليه:

مينون: هل تسمع الهتاف؟.. إنهم يهتفون باسمها: "فيلين"! أواه!.. لماذا لا تهوي صاعقة من السماء فتشعل القصر نارا؟!

وفي يأس قاتم تنصرف الفتاة ويلحق بها المغني.

وينتهي الحفل، فتفتح أبواب السرادق ويخرج منها جمهور المعجبين وقد التفوا حول فيلين، إلا أن الممثلة الكبيرة تتبين أن أكثر المعجبين إليها – وهو فلهلم – غير موجود!..

لقد أدرك فلهلم خطأه حين احتد على مينون، فذهب ليبحث عنها ويسترضيها. وهو الآن في الحديقة يحاول أن يعثر عليها.

وفجأة تظهر مينون بصحبة لوثاريو. ويبوح العازف المسن للفتاة قائلا:

لوثاريو: لقد انتقمت لك فأشعلت النار في القصر!

وهنا تصل فيلين. وإذ ترى مينون – وهي في ملابس الخدم – تقول لها بقصد تحقيرها وجرح كبريائها:

فيلين: احضري لي باقة الورد التي أهداني إياها فلهلم.. لقد تركتها على خشبة المسرح!

وتمضي الفتاة كسيرة النفس نحو المسرح..

وحالما تندلع النيران من السرادق، فيسود المكان هرج ومرج..

وفي تلك اللحظة من الخطر الداهم يدرك فلهلم قيمة مينون بالنسبة له، فلا يكاد ينجو بنفسه من الحريق حتى يسرع إلى المسرح الذي تعلوه النيران ويحمل الفتاة بين ذراعيه. إنه يحب مينون ولا أحد سواها!

الفصل الثالث

المنظر - رواق في قصر بإيطاليا

يصطحب فلهلم حبيبته مينون إلى بحيرات شمال إيطاليا وهناك يستأجر لها قصرا لتمضي فيه من الوقت ما يسمح لها باستعادة ما فقدته في الصدمة التي لحقت بها. ويذهب معها العازف المسن لوثاريو الذي تعلق بالفتاة إلى حد أنه لم يعد يقوى على البعد عنها.

وعندما يصل الثلاثة إلى القصر، يبدو كل شيء هناك كأنه مألوف تماما للوثاريو! ويضطرب العازف ثم يمرق إلى أحد الحجرات.

وتجيل الفتاة النظر في المناظر التي حولها – أشجار برتقال في لون التبر، وسماء جلواء مشرقة، وحدائق نضرة جميلة.. إن شيئا تراه ليس غريبا عليها!

ويجلس فلهلم يسكب في أذن مينون أعذب أحاديث الحب وأحلاها..

وفجأة يصعق الحبيبان عندما يبصران لوثاريو يدخل عليهما وقد ارتدى أفخر ألوان الثياب!

لوثاريو: إنني أحييكما وأرحب بكما في منزلي وبلدي!

ثم يقدم لمينون علبة حلى فاخرة ويقول لها:

لوثاريو: تجدين بداخلها سوارا وكتاب صلاة. لقد كانت ملكا لابنتي "سبيراتا" عندما كان هذا منزلي في يوم من الأيام!

وتفحص مينون محتويات العلبة في انفعال زائد. إنها تفتح كتاب الصلاة وتقرأ فيه بصوت مرتفع، وحالما يسقط الكتاب من يديها وهي مع ذلك تستمر في تلاوة الصلاة! وفجأة يدفعها شعور خفي غامض إلى الاندفاع نحو حجرة جانبية. وبعد لحظة تعود وهي تصيح:

مينون: لقد رأيتها.. رأيت صورة أمي!

ويبكي لوثاريو فرحا وهو يعانق مينون.

لوثاريو: سبيراتا!.. ابنتي!

ثم يتعانق فلهلم ومينون، ويبارك عناقهما الأب لوثاريو!

ستار

تاييس .. جول ماسينه

Jules Massenet THAIS

تقوم هذه الأوبرا على قصة الروائي الفرنسي الذائع الصيت "أناتول فرانس" A. France التي تحمل نفس الاسم والتي تصور الصراع بين الخير والشر في نفس الإنسان، وقد نظم كلماتها "لويس جاليه" Louis. Gallet. ووضع ألحانها الموسيقي الفرنسي "جول ماسينيه" J. Massenet وظهرت لأول مرة على مسرح "جران أوبرا" Grand Opera بباريس في ١٦ مارس عام ١٨٩٤.

شخصيات الأوبرا:

أثانيال: راهب	Athanael
نيسياس: فيلسوف	Nicias
تاييس: غانية	Thais
ألبين: رئيسة دير الراهبات	Albine
بالمون: رئيس دير الرهبان	Palemon

رهبان – راهبات – أصدقاء نيسياس – راقصات

زمن الأوبرا: نهاية القرن الرابع

المكان: الإسكندرية والصحراء المجاورة لها

الفصل الأول

المنظر الأول - صوامع الرهبان في الصحراء

يجتمع حول مائدة العشاء اثنا عشر راهبا، ويتساءلون عن سبب تأخير زميلهم "أثانيال". وما هي إلا برهة حتى يقبل الراهب المتخلف وقد تملكه إعياء شديد، ثم يتهالك على مقعده. وإذ يقدم إليه زملاؤه الطعام والشراب يرفض قائلا:

أثانيال: إن قلبي مفعم بالأسى. فلقد أتيت من المدينة الفاسدة التي ملأتها المرأة التي تدعى "تاييس" شرورا وآثاما.

ويصمت برهة كأنه يستجمع شوارد ذكرياته ثم يستطرد:

- حقيقة أني عرفتها عندما كنت شابا. غير أن الله عصمني عن الغواية، فوجدت سلاما هنا في الصحراء. وكم أكون سعيدا لو إنني قدت تلك الروح الساقطة الضالة إلى طريق الخلاص!

لكن رئيس المدير لا يوافق على هذا الرأي، فينصح الراهب قائلا:

رئيس الدير: من الأوفق ألا تندمج مع هذا الجيل الشرير يا أثانيال. فتلك هي الحكمة الخالدة!

وينهض الرهبان ثم ينصرفون إلى فراشهم، بينما يتوجه أثانيال إلى صومعته ويرقد فوق حشية أمامها. وتتراءى له "تاييس" طوال الليل في شكل رؤيا تقض مضجعه.

وفي مبرق الفجر يبث الراهب زملاءه الوداع ويتأهب للرحيل. لقد عقد العزم على تخليص "تاييس"!

المنظر الثاني – شرفة في منزل "نيسياس" بالإسكندرية

يتوجه أثانيال إلى منزل الفيلسوف "نيساس". وعندما يصل إلى الشرفة، يقف فيها ويرمي ببصره إلى المنظر القائم أمامه ويناجي نفسه قائلا:

– ها هي الإسكندرية!.. المدينة التي ولدت فيها – المدينة التي احتقرها لكل ما فيها من أبهة وجمال. ألا ليت ملائكة السماء تطهر هواءها المسموم!

ولا يكاد ينتهي من نجواه حتى تنبعث من داخل المنزل ضحكات عابثة، ثم يقبل نيسياس وقد لف كلا يديه حول جاريتين جميلتين! وما أن تقع عينه على الراهب الأشعث حتى يبادره بالسؤال:

نيسياس: ماذا عساي أن أفعل لصديقي القديم؟

أثانيال: لقد أتيت إلى هنا لأمكث يوما واحدا. وهدفي الوحيد أن أخلص تاييس وأقودها على طريق الله. فأين يمكنني العثور عليها؟

ويجيب الفيلسوف على سؤال الراهب بضحكة ساخرة ثم يقول:

نيسياس: لقد بعت آخر كرمة لأشتري صحبتها أسبوعا واحدا!.. وهي سوف تتناول العشاء عندي الليلة لآخر مرة!..

ويقول الراهب في توسل:

أثانيال: أعرني رداءً استخفي به. فيجب على المرء أن يحارب قوى الشر بنفس أسلحتها.

ويحضر العبيد الملابس الفاخرة، فيرتديها الراهب ويبدو فيها كأنه خلق من جديد!

ويحين موعد الحفلة، فيتوافد المدعوون على منزل الفيلسوف ويتجهون صوب الشرفة. وفجأة يهمس نيسياس في أذن الراهب:

نيسياس: احذر العدو الخطر!.. فها هي ذي مقبلة! وتقبل "تاييس" وقد ازدانت بكل ما يمكن أن تزدان به امرأة، فتحيي نيسياس وتشتبك معه في حديث لا تلبث أن تقطعه بسؤال مفاجئ عمن يكون ذلك الشخص الغريب. وهنا يقدم إليها نيسياس الراهب المتنكر قائلا:

نيسياس: إنه فيلسوف! وقد أتى ليلقنك التعاليم المقدسة!

تاييس: وماذا عساها تكون تلك التعاليم؟

فيجيب الراهب في وقار:

أثانيال: احتقار الجسد، وحب الألم، وتكفير عن الذنوب.

وتبتسم تاييس لصرامته ثم تسأله في سخرية:

تاييس: وماذا تعرف عن حكمة الحب؟!.. ألا فاجلس معنا وتوج نفسك بإكليل من الورد، واعلم أن ما من شيء أبقى وأوقع من الحب!

ويمور الاشمئزاز في نفس الراهب عندما تطرق أذنه تلك الكلمات السافرة، فينهض مسرعا مستأذنا في الانصراف وهو يصيح بتاييس:

أثانيال: سوف لا يتم خلاصك إلا في منزلك!

ثم يرتاع عندما تتخذ أمامه وضعا كله فتنة وإغراء.. إنه نفس الوضع الذي تراءت له فيه في شكل رؤيا أمام صومعته في الصحراء!

الفصل الثاني

المنظر الأول - غرفة في منزل تاييس

تجلس تاييس بمفردها وقد امتلأت الغرفة من حولها بالطنافس والرياش الفاخرة. لقد شربت كأس الحياة مترعة حتى ثملت، وأشعلت جوعها الحسي حتى زهدت، ثم بدأت تميل إلى الصدوف عن مجال السمر. وها هي ذي الآن جالسة تتأمل وجهها من مرآة صغيرة أمسكتها بيدها وكأنما تسائل نفسها: "ترى هل تخلى عني جمالي؟..."

وحالما يظهر بالباب الراهب أثانيال. وما أن تقع عينه عليها حتى يقول في شبه صلاة:

– الهم أسدل على جمالها ستارا!

ثم يتقدم نحوها بخطى وئيدة، وينشأ يحدثها عن السعادة الروحية والحياة الأبدية. إلا أنه لا يستطيع أن يصمد طويلا أمام طغيان جمالها الصارخ، فحالما توفر نفسه، ويكاد يهم بتمزيق رداءه المستعار ويصيح بكل قواه لاعنا "الموت الحي" الذي يتمثل في شخصها!

لكن تاييس ترتمي أمامه، وتصرح له بأنها بدأت تحس نشوة جديدة تشع في نفسها. ثم تبكي في مرارة وحرقة وكأنها تريد أن تغسل بدموعها كل ما علق في نفسها من أدران الخطيئة.

المنظر الثاني - أمام منزل تاييس

يرقد أثانيال تحت رواق أمام منزل تاييس. الليل مهيب وليس هناك من ضوء سوى أشعة القمر الباهتة تتسلل إليه من جوانب الرواق.

وتدخل تاييس وقد أمسكت بيدها مصباحا ينير لها الطريق، وعندما تصل إلى الراهب تقول له بصوت هامس:

تاييس: أيها الأب، لقد استقرت كلماتك في قلبي وأشاعت فيه نورا عظيما. فماذا عساني أن أفعل؟

أثانيال: إن فجر السلام قريب. وعندما يسفر، سأرافقك إلى دير تحيين فيه حياة بركة وسلام. ولكن عليك أولا أن تحطمي كل أثر لحياتك الآثمة!

وتتوسل إليه تاييس أن يستثنى مما ستحطمه تمثال "أيروس" إله الحب، الذي أهداه لها نيسياس. غير أن أثانيال يرفض طلبها في إصرار، فيمسك بالتمثال ويهوى به على الأرض في حنق. وبعد قليل يظهر "نيسياس" وبصحبته راقصة وأصدقاء وعبيد يحملون مشاعل. وقبل أن يتم الفيلسوف تحيته، يقاطعه الراهب قائلا في صرامة وحزم.

أثانيال: إن تاييس لم تعد ملكا لك. أنها لم تعد تاييس الدنيوية.. انظر إليها الآن وكأنها ولدت من جديد!

وتتقدم تاييس وقد ارتدت ثوبا من الصوف الخشن وعصبت رأسها برباط أسود ثم تقف برهة بجوار أثانيال تحملق معه في ألسنة النار التي بدأت تندلع من داخل المنزل.

لقد اشتعلت الغانية النار في كل ما دنسته يد الرذيلة!

وإذ يهم الاثنان بمغادرة المكان، يندفع نيسياس نحو تاييس ويقول لها في توسل وقد أمسك بها: **نيسياس**: لا تتركينا!

لكن أثانيال ينهره صائحا:

أثانيال: لا تضع يدك الآثمة على عروس الله!

ويقف الجميع صامتين يشاهدون النار المضطرمة وهي تلتهم المنزل. وعندما تبدأ الجدران في الانهيار، ترحل تاييس مع أثانيال في خشوع.

الفصل الثالث

المنظر الأول - واحة في الصحراء

في وقدة الشمس المحرقة، ووسط الرمال المترامية الضاربة في جوف الصحراء، يتقدم أثانيال ومن ورائه تاييس في طريقهما إلى الدير وقد أعياها السير وهدهما العطش. وتحاول تاييس أن تعبر للراهب عن مقدار التعب الذي ألم بجسدها، فلا يجيبها إلا في خشونة وقسوة بالغين:

أثانيال: احتقري جسدك، وكفري عن ذنوبك!

لكن تاييس يشق عليها احتمال التعب، فتتهالك على الأرض في إعياء. ولا يجد أثانيال بدا من أن يعاملها في شيء من اللين!

أثانيال: ربما أكون أجهدتك كثيرا. دعيني إذن أحضر لك شيئا من الماء البارد والفاكهة لتستردي نشاطك.

ويمضي أثانيال، فتنتظر تاييس عودته في هدوء. لقد امتلأت نفسها سلاما روحيا جميلا! وحالما يعود أثانيال وقد حمل إليها قدحا من الماء وبعض الفاكهة. ثم يسمع من بعيد صوت صلاة منبعثة من دير الراهبات.

وبعد قليل تقبل الراهبات. ويتقدم أثانيال من "ألبين" — رئيسة الدير — ويعهد إليها بتاييس التائبة. وإذ تهم تاييس بالانصراف مع بقية الراهبات تودع أثانيال قائلة:

تاييس: سنتقابل ثانية في المدينة السماوية!

ويبقى أثانيال يتبع تاييس بعينيه وهي تتقدم نحو الدير ويقول في صوت خافت متهدج:

– سوف لا أراها بعد اليوم!

المنظر الثاني - حديقة دير الراهبات

تجثو الراهبات للصلاة تحت شجرة تين ظليلة مرتفعة. وفي ظل الشجرة ترقد تاييس وهي في النزع الأخير، فقد أصابتها حمى أوشكت أن تقضي عليها.

وتقول رئيسة الدير في خشوع:

ألبين: ثلاثة شهور أمضتها وهي تبكي وتبتهل إلى الله، لقد سحقت جسدها التوبة!

وفي هذه اللحظة يظهر أثانيال بباب الحديقة! فتتجه نحو رئيسة الدير لتحييه. ويبدو وجه الراهب شاحبا وقد ارتسمت عليه علامات الأسى والحزن الدفين.

وتنسحب رئيسة الدير ومن ورائها الراهبات، في حين يتقدم أثانيال في تثاقل وإعياء نحو تاييس. وإذ تراه المحتضرة تسأله في صوت متحشرج وقد دنت نهايتها:

تاييس: هل تذكر تلك الرحلة المشرقة التي قدتني فيها إلى هنا؟...

وكأنما حركت بسؤالها أمواج نفسه الملتاعة، وجعلت ما كان كامنا في أعماقه يطفو على السطح، فصاح مجيبا:

أثانيال: إنني لا أذكر سوى جمالك!..

لكنها وهي في النزاع الأخير لا تتبين شيئا مما يقول، وإنما تسرد عليه وصفا بهيجا للملائكة الذين يخيل إليها أنها تراهم بعينيها الكليلتين.

وفي فورة من العاطفة اليائسة يصرح لها أثانيال بحبه الدفين!

ولكن تاييس لا تسمعه.. فقد صعدت روحها إلى السماء! ويسدل الستار على الاثنين.... على الغانية التي ضلَّت، ثم زهدت، فاستقامت... والراهب الذي استقام، ثم زهد، فضلّ!

توسكا .. جياكو مويوتشيني

Giacome Puccini TOSCA

"توسكا" مأساة غنائية في ثلاثة فصول تقوم على مسرحية الكاتب المعروف "فكتوريان ساردو" Victorien Sardou التي تصور الحب والانتقام. وقد نظم كلماتها "جيوسيبي جياكوزا" Giuseppe Giacosa و"لويجي اليكا" Luigi Illica ووضع ألحانها الموسيقى الإيطالي المشهور "جياكومو يوتشويني". وقدمت لأول مرة على مسرح "كوستانزي" Costanzi بروما في ١٤ يناير عام ١٩٠٠.

شخصيات الأوبرا:

ماريو كافارادوسي: رسام	Mariou Cavaradossi
البارون سكاربيا: رئيس البوليس	Baron Scarpia
تشيزاري انجيلوي: سجين هارب	Cesare Angelotti
فلوريا توسكا: مغنية	Floria Tosca
سبوليتا: ضابط بوليس	Spoletta

زمن الأوبرا: يونيه ١٨٠٠

المكان: روما

الفصل الأول

المنظر - كنيسة القديس أندريا بروما

يدخل السجين الهارب "أنجيلوتي" وهو يلهث من فرط الخوف والإعياء ويحدث نفسه قائلا:

– لقد قالت لي أختي أنها ستترك لي المفتاح بجوار العمود!

ثم يتجول بين أعمدة الكنيسة وفجأة يصيح في ارتياح:

– آخ!.. ها هو ذا!.. وها هو ذا معبد عائلة أتافانتي!

ويتلفت حوله في وجل ليتأكد من أن أحدا لا يتعقبه، ثم يدفع بالمفتاح إلى البوابة ويفتحها ولا يلبث أن يختفي بالداخل. وهنا يدخل كاهن الكنيسة وينظر إلى اللوحة الزيتية الموضوعة فوق قاعدة خشبية وقد ألقى فوقها غطاء من القماش، فيعلم أن الرسام لم يصل بعد. ويدق ناقوس، فيجثو الكاهن على ركبتيه ويغمغم مصليا.

وبعد لحظة يصل الرسام "ماريو كافارادوسي" مسرعا، ثم يتجه نحو لوحته ويكشف عنها الغطاء... إنها صورة العذراء ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبي!

وينتهي الكاهن من صلاته ثم يتقدم نحو الرسام ويقول له:

الكاهن: أرى أنك لا ترسم سوى تلك السيدة التي كثيرا ما تأتى هنا للصلاة!

ماريو: نعم، فقد رسمتها ذات صباح وهي جاثية على ركبتيها

ويمضي الرسام قليلا في عمله ثم يضع فرشاه قائلا:

ماريو: إن الصورة مزيج رائع من شعرها الذهبي وبشرة حبيبتي "توسكا" السمراء!

ويخرج الكاهن، فيبقى الرسام بمفرده. وهنا يلمحه السجين الهارب أنجيلوتي وهو خارج من المعبد فيتذكره كصديق قديم ويندفع نحوه. وبعد برهة من الشك والدهشة يتحقق الرسام من أن حياة السجن قد غيرت تماما ملامح صديقه القديم أنجيلوتي. ويعرف منه تفاصيل هروبه فيغلق باب الكنيسة لحمايته. وهنا يسمع صوتا مألوفا يناديه:

– ماريو! ماريو!

فيهمس الرسام في أذن صديقه أنجيلوتي:

ماريو: أسرع فإنها توسكا!.. عليك أن تختبئ الآن حتى تذهب من هنا!

ويتوجه أنجيلوتي مرة ثانية نحو المعبد، بينما يذهب ماريو نحو الباب ليفتح لحبيبته. وتدخل توسكا في زهو وخيلاء، وهي تعبث بالريش الموضوع في قبعتها! وكيف لا وهي المغنية التي يتطلع إليها الجميع في روما؟!

وتسأل توسكا في حنق:

– لماذا كان الباب مغلقا؟ ومن الذي كان يتحدث معك في الداخل؟

ويحاول الرسام أن يهدئ من قلقها على الرغم من أنه أكثر قلقا على صديقه أنجيلوتي. وطبيعي أن يصرفه هذا القلق عن الترحيب بتوسكا والاهتمام بها. لكن عدم الاهتمام هذا يذكي في حب توسكا له والحرص عليه، فترجوه أن يقابلها تلك الليلة في المكان الذي اعتاد أن يقابلها فيه. وعلى الرغم من أن شوق ماريو إلى لقاء حبيبته لا يقل عن شوقها إليه، ألا أنه يحاول التخلص منها مما يسئ إليها، فيداخلها الشك وتظن أنه يريد منها أن تخلي له الجو لاستقبال "النموذج" التي يقوم برسمها، وإذ تتشبث عيناها بصورة الفتاة ذات الشعر الذهبي تصيح قائلة:

– إنها الماركيزة أتافانتي!

ويعترف لها ماريو بأنه استخدم في رسم الصورة ملامح المرأة التي طالما رآها تصلي في المعبد ثم يردف قائلا:

– ولكن عينيها أقل جمالا من عينيك!

ثم يحاول أن يحول نظرها عن الصورة فيقول لها:

– وليس هناك سبب يدعوك إلى الغيرة!

وهنا تسمع موسيقى ساحرة تطفئ نار الغيرة المتأججة في صدر توسكا. وتحت تمثال العذراء يجدد الحبيبان عهد الحب القائم بينهما بقبلة طويلة حالمة. ثم تمضي توسكا وهي تقول لحبيبها أنها تفضل لو أنه رسم عيني العذراء سوداوين كعينيها!

وما أن يخلو الجو حتى يسرع ماريو إلى العبد وينادي أنجيلوتي وهو يقول له:

ماريو: أن توسكا لا تكتم السر أبدا، ولذا لم أبح لها بأي شيء. والآن.. ما هي خطتك؟!

ويجيب السجين الهارب قائلا:

أنجيلوتي: لقد تركت لي أختي ثوب امرأة تحت المذبح.

وعندما أرتدي هذا الثوب يمكنني الفرار من قبضة البارون سكاربيا

ماريو: من الأوفق أن لا تنتظر هبوط الليل، فإنك ستجد ممرا ضيقا يبدأ من المعبد ويؤدي بك إلى منزلي. وهناك المفتاح. فعليك أن تختبئ

هناك. وإذا شعرت بخطر أسرع إلى الحديقة. وفي منتصف الطريق تجد ممرا يؤدي بك إلى مخزن تستطيع أن تلجأ إليه لتنجو من الخطر...

ويقطع كلام ماريو صوت طلقة مدفع فيصيح مذعورا:

ماريو: لقد اكتشفوا هروبك فيجب أن ترحل على الفور.. هيا لأصحبك!

ويخرج الصديقان، وبعد قليل يدخل البارون سكاريبا

رئيس البوليس – ثلة من الجنود. ويأمر سكاريبا الضابط سبوليتا بتفتيش الكنيسة. وحالما يعثر رئيس البوليس على مروحة:

– إنها تخص الماركيزة أتافانتي!

ثم ينظر إلى صورة العذراء المرسومة ويستطرد:

– وذاك وجهها!

وهنا يحضر الضابط سلة طعام فارغة من المعبد، ويتعرف عليها الكاهن فيضطرب ويقول متلعثما:

الكاهن: إن أنجيلوتي هنا، وهو الذي أكل طعام الرسام!

وفي هذه اللحظة تعود توسكا فلا تجد حبيبها. ويبرزها البارون سكاريبا المروحة عسى أن تثير غيرتها فتفضي بشيء ثم يسألها ماذا تعرف عنها. لكن توسكا تجيبه قائلة:

– لقد أتيت إلى هنا لأخبر الرسام ماريو أنني سأغني الليلة في الاحتفال فلن أتمكن من مقابلته.

وتخرج توسكا، فيطلب البارون سكاريبا من الضابط سبوليتا أن يتعقبها ويأتي له بالنتيجة في قصر "فرنيز".

الفصل الثاني

المنظر - مسكن البارون سكاريبا بقصر فرنيز

يحدث البارون سكاريبا نفسه وهو يتناول طعام العشاء فيقول:

- إن توسكا ساحرة جذابة!.. ولا بد أن يكون جنودي قد ألقوا القبض على الرجلين المتآمرين..

وهنا يدخل الضابط سبوليتا ويعلن قائلا:

- لقد تعقبنا السيدة إلى الفيلا، ولكننا لم نعثر على الرجل الذي نبحث عنه. غير أننا ألقينا القبض على الرسام "ماريو كافارادوسي"، ومن المؤكد أنه يعرف أين يختبئ ذلك الرجل.

فيأمر البارون سكاريبا بإحضار الرسام، ثم يرسل أحد الضباط لاستدعاء القاضي والجلاد..

ويقف الرسام ماريو أمام البارون فينكر معرفته لأي شيء يتعلق بأنجيلوتي، مما يثير غضب البارون.

وهنا تظهر توسكا، وقد ارتدت ملابس الاحتفال، وإذ تتقدم من حبيبها لتعانقه، يحذرها بألا تتفوه بشيء مما رأته في الفيلا.

وأخيرا يعلن البارون قائلا:

البارون: أيها الرسام ماريو كافاردوسي... إن القاضي ينتظرك ليأخذ شهادتك!

ثم يشير إلى غرفة على اليمين، ويصدر أمره إلى الجلاد بأن يقود الرسام إلى داخلها!

ويبقى البارون وتوسكا بمفردهما..

البارون: دعينا نتحدث كصديقين.. هل أنت متأكدة من أن أحدا لم يكن في الفيلا؟!

توسكا: نعم!

البارون: قولي الصدق فبهذا وحده تستطيعين إنقاذ حبيبك من التعذيب!

وترتعد توسكا لفكرة التعذيب الذي سيلحق بحبيبها فتسأل وقد غمر وجهها الأسى:

توسكا: وماذا أنتم به فاعلون؟

لكنها لا تلبث أن تسمع أنات صادرة من الحجرة التي دخل فيها الرسام..

وعبثا تحاول توسكا الاقتراب من باب الغرفة.. ويصدر البارون أمره إلى الجلاد بالاستمرار في التعذيب ثم يطلب من الضابط أن يفتح باب الغرفة.. وينبعث من داخل الغرفة صوت يمور فيه الألم.. إنه صوت الرسام!

ويكرر البارون سؤاله لتوسكا، لكن المغنية تصر على أجابتها.. وتتكرر أنات الرسام، فلا تقوى توسكا على احتمال تعذيبه وتبوح بصوت يائس:

توسكا: تجدون انجيلوتي مختبئا في بئر بالحديقة..

فيصيح البارون بالجلاد:

– كفى!

ويحضر الجنود الرسام بعد أن كاد يفقد وعيه من فرط التعذيب، فتمطره توسكا بسيل من القبلات الملهوفة. ويصدر البارون أمره إلى الضابط سبوليتا بإحضار أنجليوتي من حديقة الفيلا..

ولا يكاد الرسام سترد وعيه ويتبين ما حدث حتى يصيح بتوسكا قائلا:

ماريو: لقد خدعتني!

ويطلب البارون من أتباعه إبعاد الرسام فيخلو له الجو مع توسكا.. وإذ يقدم لها كأسا من الخمر يقول:

البارون: دعينا نتحدث عن إنقاذ حبيبك!

توسكا: ماذا تعني؟..

البارون: أعني أنني لا أطلق سراحه دون مقابل!

توسكا: وما هو الثمن الذي تطلبه؟

البارون: إنني لا أطلب نقودا!

ثم ينهض من مقعده ويقترب منها وهو يبدي لها إعجابه الزائد بجمالها وجاذبيتها، وأخيرا يطلب منها صراحة أن تمضي معه الليلة!

وترتعد توسكا لهذا الطلب السافر، فتسرع نحو الباب وهي تقول حانقة:

توسكا: إنني أفضل الموت على تحقيق هذا الطلب!

البارون: ولكنه ثمن إنقاذ حبيبك!

ثم يتجه نحوها ويحاول احتضانها بالقوة فتصيح مستغيثة، ويقطع الموقف قرع طبول، فيخبرها البارون بأن موعد إعدام الرجلين قد حل!..

وفي لوعة وأسى تنتحب توسكا وهي تقول:

– إنني لم أفعل شرا بأحد في حياتي.. فلماذا تتخلى عني السماء؟!..

ثم تتوسل إلى البارون أن يعفو عن حبيبها.. لكن البارون يكرر طلبه الذي لا يتخلى عنه.. وهنا يدخل الضابط سبوليتا فيعلن أن أنجيلوتي قد تجرع السم عندما ألقوا القبض عليه، وأن الرسام ينتظر قرار البارون بشأنه. فيسأل البارون توسكا:

– ماذا عندك من قول؟

وتبكي توسكا في حرقة عندما تتذكر العار الذي سوف يلحق بها إن هي طلبت إنقاذ حبيبها.. ولكن بكاءها يزداد عندما يتمثل لها حبيبها وهو بين يدي الجلاد، فتومئ إلى البارون بأنها توافقه على طلبه..

وهنا يقول لها البارون أن موقفه سيكون حرجا أن هو أطلق سراح حبيبها دون سبب ظاهر. فيقترح عليها أن يتوجه الرسام إلى مكان الإعدام ويصطنع الموت عندما يطلق عليه الجلادون النار، ويعدها بأن يصدر أمره إلى الجلادين لاستخدام طلقات "كاذبة". ثم يجلس إلى مكتبه ليكتب قرار الإعدام. وتلمح توسكا سكينا على المائدة فتتجه نحوها بحجة أخذ كأسا من الخمر. وفي حركة سريعة غير ظاهرة تخفي السكين في ملابسها، وينتهي البارون من كتابة القرار، ثم يتجه نحو توسكا ليطفئ ظمأه منها.. لكنه لا يكاد يحتضنها حتى تغمد توسكا السكين في صدره فيسقط على الأرض وقد انطفأت فيه الحياة!

الفصل الثالث

المنظر - ساحة السجن

يدخل السجان حاملا مشعلا، ويتبعه أحد الجنود وهو يقود الرسام إلى المصير الذي ينتظره. ويتوسل الرسام إلى الحارس أن يحمل له رسالة إلى توسكا، ويقدم إليه خاتما ثمينا كأجر على هذه المهمة. ثم يعكف على كتابة الرسالة، لكن ذهنه يسبح به إلى آخر لقاء له مع حبيبته..

وفجأة تظهر توسكا ومعها الضابط سبوليتا وأحد الحراس. وينسحب الرجلان، فتبقى توسكا مع حبيبها. ويقرأ العاشقان قرار الإعدام، ثم تخبر توسكا حبيبها بأنها قتلت البارون سكاربيا..

توسكا: سوف تذهب الآن للإعدام المصطنع!.. فعليك أن تسقط على الأرض بمجرد إطلاق النار.. وبعد ذلك سنكون أحرارا في البحث عن مستقبل باسم جميل!

وتتملك الحبيبين النشوة فلا يشعران بفرقة إطلاق النار وقد وصلت وأخذت مكانها، ويقود الضباط الرسام إلى حائط في مواجهة المعتقل الذي تنتظر فيه توسكا لتشاهد الإعدام المصطنع.. ويتأهب الجلادون.. ثم يطلقون النار! وتقول توسكا لنفسها عندما يسقط الرسام على الأرض:

-كم هو بارع في التمثيل!

ويغادر الضباط ساحة السجن يتبعه الحارس والجلادون بعد أن يضعوا غطاء فوق جسد الرسام. وتسرع توسكا نحو حبيبها المسجي على الأرض وقد تملكها شعور بالنصر!..

ولكنها لا تكاد تكشف عنه الغطاء وتقترب منه حتى تتبين أن أنفاسه قد خمدت.. لقد خدعها البارون وأمر بإعدام حبيبها!

وهنا يسمع من بعيد صوت ضابط يعلن اكتشاف قتل البارون سكاربيا! وتحوم الشبهات حول توسكا، فينطلق الجنود نحوها إلى حيث إعدام الرسام..

ولكن توسكا المفجوعة تدرك أن حياتها قد انتهت بموت حبيبها، فتسرع نحو الحصن وتلقي بنفسها من فوقه.

ستار

حلاق أشبيلية .. جيوا كينو روسيني

Gioacchino Rossini IL BARBIERE DI SIVIGLIA

"حلاق إشبيلية" أوبرا مرحة تقوم على مسرحية الكاتب الفرنسي "بومارشيه" Beaumarchais التي تحمل نفس الاسم، والتي استقبلتها باريس عام ١٧٧٥ بعاصفة من الإعجاب. وقد نظم كلماتها بالإيطالية "تشيزاري ستربيي" Cesare Sterbin ووضع ألحانها الموسيقي الإيطالي المعروف "جيواكينو روسيني" Gioacchino Rossin في أقل من ثلاثة أسابيع. ومع ذلك فإنها صارت أشهر أوبراته على الإطلاق. وقد قدمت لأول مرة على مسرح "ارجينتينا" بروما في ٦ فبراير عام ١٨١٦.

ومما يجدر بالذكر أن افتتاحية هذه الأوبرا كان قد وضعها روسيني لأوبرا أخرى بعنوان "إليزابيث ملكة انجلترا" Elisabetta Regina d'Ighilterra.

شخصيات الأوبرا:

الكونت المافيفا	Count Almaviva
فوريللو: خادمه الخاص	Florello
فيجارو: حلاق أشبيلية	Figaro
روزينا: فتاة ثرية يتيمة	Rosina
الدكتور باروتولو: الوصي عليها	Dr. Bartolo
بازيليو: معلم موسيقى	Basilio
برتا: مربية روزينا	Berta

زمن الأوبرا: القرن السابع عشر

المكان: إشبيلية

الفصل الأول

المنظر - ميدان في أشبيلية

في منزل أنيق بمدينة أشبيلية يقوم الدكتور "بارتولو" بالوصاية على فتاة جميلة تدعى "روزينا". وقد أثار جمال الفتاة – أو على الأصح ثراؤها – اهتمام الطبيب فشغف بها وعول على الزواج منها! إلا أن هناك شخصا آخر ينازعه قلب الفتاة وهو "الكونت ألمافيفا".

وقبل أن ينبلج الفجر، نرى "فلوريللو" خادم الكونت الخاص وقد صحب جماعة من الموسيقيين ليعزفوا أنغاما عذبة حالمة تحت نافذة روزينا. وبعد قليل يصل الكونت نفسه ويشرع في الغناء. ألا أن روينا لا تطل من النافذة، فيأمر الكونت الموسيقيين بالانصراف!

وهنا يظهر "فيجارو" حلاق إشبيلية الفضولي المرح الذي يتدخل في كل شيء، ويعتقد أنه يستطيع قضاء كل شيء! فيختبئ الكونت ليستمع إلى الحلاق وهو يغني في نشوة أغنيته المعروفة: "فيجارو هنا.. فيجارو هناك.. فيجارو في كل مكان!" فيفكر الكونت في أن يعهد إليه بدور الوسيط بينه وبين روزينا، فيخرج من مكمنه ويصرح له بحبه لروزينا، ثم يسأله عن كيفية الوصول إليها. فيجيبه الحلاق في ثقة قائلا:

فيجارو: يا لك من سعيد الحظ! فإنني أقوم في منزلها بعمل الحلاق، والطبيب، والصيدلي، والبيطار!...

وفيما هما يتحدثان، يخرج الدكتور بارتولو من المنزل ويقول لفيجارو:

بارتولو: إذا أتى السيد بازيليو فدعه ينتظرني. فإنني اليوم مشغول بزواجي من روزينا!

وإذ يرحل الطبيب، يسأل الكونت الحلاق:

الكونت: من يكون بازيليو هذا؟

فيجارو: رجل يسعى إلى تزويج الناس، ويقوم بتعليم روزينا الموسيقى!

ثم يحث الكونت على اتخاذ موقف ايجابي حاسم أن هو أراد ألا تفلت وزينا من يده، ويقترح عليه أن يغني لها مرة أخرى. فيتوجه الكونت بالغناء إلى روزينا معلنا لها أن اسمه "لندورو"! وتنصت روزينا إلى الغناء من وراء الستار، ولا تكاد تظهر وتهم بالرد عليه حتى يقطع غناءها نداء بالداخل فتختفي من جديد!

ويتملك الكونت العاشق الحنق ويطلب من الحلاق أن يساعده على دخول المنزل.

فيجارو: لقد وجدت الحل!.. هناك فصيلة من الجنود ستصل اليوم، فعليك أن ترتدي زي جندي وتتظاهر بأنك ثمل ثم تدخل المنزل وكأنك تترنح من فرط الشراب. ولسوف يصدق الطبيب كل كلمة تصدر منك!

وينتشي الكونت لهذه الفكرة، فينخرط مع الحلاق في غناء ثنائي "دويتو" مرح!

الفصل الثاني

المنظر - غرفة بمنزل الدكتور بارتولو

تجلس روزينا بمفردها حالمة تسترجع الغناء الذي سمعته تحت نافذتها. لقد أثر فيها ذلك الصوت المجهول ونفد إلى أعماق قلبها، فتغنى في نشوة:

"هناك صوت أحتفظ به في قلبي.. صوت لا يجب أن يسمعه سواي!"" وما أن تنتهي من غنائها حتى يقبل فيجارو. لكنه إذ يلمح الدكتور بالرتولو من بعيد يبتعد مسرعا. ويصل الطبيب فيؤنب روزينا قائلا:

بالرتولو: هل كنت تتحدثين مع ذلك الفيجارو اللعين؟

فتجيب روزينا في غير مبالاة وهي تهم بالانصراف:

روزينا: ولم لا؟.. إنني أميل إليه!

وهنا يظهر بازيليو – معلم الموسيقى – ويخبر الطبيب بأن "الكونت المافيفا" في المدينة!

بارتولو: ماذا؟.. ذلك الشخص الوقح الذي يغنى لروزينا في مبرق الفجر؟!. ماذا عسانا أن نفعل لنوقفه؟

فيجيبه المعلم الواسع الحيلة قائلا:

بازيليو: علينا أن نلفق له فضيحة نلوث بها سمعته!

ثم يقرر الاثنان الذهاب لإعداد عقد الزواج بين الطبيب وروزينا!

إلا أن فيجارو – الذي كان يسترق السمع من ثقب الباب كعادته – يخبر روزينا على الفور بأن الطبيب الوصي عليها يتأهب للزواج منها! فتصبح الفتاة مستنكرة: روزينا: يا له من أبله مسكينّ.. ولكن، خبرني أيها السيد فيجارو: من عسى أن يكون ذلك الشاب الذي يغني لي تحت النافذة؟!

فيجارو: أوه، انه قريب لي اسمه "لندورو".. ولكن قلبه مشغول في الوقت الحاضر!

روزينا: بمن؟

فيجارو: برو.. زي.. نا!!

وأخيرا يقترح عليها أن تكتب له خطابا مناسبا كدليل على أنها تبادله الحب. وعندما تفرغ الفتاة من كتابة الخطاب، يتسلمه الحلاق وقد غمره الشعور بالفوز. ويدخل الدكتور بارتولو فيلقي على الفتاة فيضا من الأسئلة: لماذا اتسخت يدها بالحبر، ولماذا اختفت ورقة من أوراق الكتابة، ولماذا برى القلم حديثا؟...

فتجيبه الفتاة على الفور بأنها استخدمت الحبر عندما حرقت يدها، وأنها لفت بالورقة بعض الأشياء، وبرت القلم ليساعدها على نقل نقش للتطريز! ويغمرها الطبيب بسيل من الغضب ثم ينصرف فتمضي المسكنة في أثره.

وتسمع المربية "برتا" طرقا على الباب فتتوجه إليه لترى من الطارق. وحالما ترى أمامها جنديا ثملا!.. إنه "الكونت المافيفا" الذي جاء متنكرا طبقا لخطة فيجارو! ويعود الدكتور بارتولو وبصحبته روزينا، فيصر الجندي المترنح على أن ذلك هو مسكنه! وعبثا يحاول الطبيب حمله على مغادرة المنزل، ثم يأمر روزينا بالانصراف من الغرفة، ولكن بعد أن يكون الكونت المتنكر قد نجح في أن يدس بين يديها قصاصة مكتوبة!

وهنا يقبل الحلاق مسرعا:

فيجارو: لم كل هذا؟..

وفي أعقابه يدخل ضابط وبعض الجنود فيلقون القبض على الكونت. لقد حضروا بناء على طلب الطبيب لينقذوه من الجندي المخمور، ولكن الكونت المتنكر ينفرد بالضابط ويفصح له عن شخصيته فيخلي الضابط سبيله في الحال مما يلجم ألسنة الجميع!

الفصل الثالث

المنظر - قاعة الموسيقى في منزل الطبيب

يجلس الدكتور بارتولو وهو يتنفس الصعداء بعد أن نجح أخيرا في التخلص من الجندي العربيد. وبعد برهة يسمع قرعا على الباب. إنه الكونت أيضا!.. ولكنه جاء متنكرا هذه المرة في زي معلم موسيقى!

الكونت: إنني تلميذ السيد بازيليو الذي كلفني بإعطاء درس الموسيقى بدلا منه لشدة مرضه. وإن "الكونت المافيفا" يقيم الآن في نفس الحانة التي أقيم فيها! وقد وجدت هذا الصباح خطابا كتبته إليه الفتاة التي تقوم أنت بالوصاية عليها. ولكي أساعدك سأحطم لك سمعته!

الطبيب: يا لك من تلميذ نجيب للسيد بازيليو!.. سأذهب على الفور وأنادي لك روزينا.

وبعد قليل يعود الطبيب ومعه روزينا. ولكنه لا يريد أن يجلس المعلم مع الفتاة بمفردها، فيطلب من فيجارو أن يتأهب ليحلق له ذقنه في القاعة!

الطبيب: أحضر لي منشفة، وهاك المفاتيح!

ويغادر الحلاق الغرفة، وبعد لحظات يسمع الطبيب صوت أواني ترتطم بالأرض! فيعصف به الغضب ويصيح حانقا:

الطبيب: لقد كسر اللعين الأواني الصينية!

ولكنه لا يريد أن يترك الغرفة ليعاين الخسارة حتى لا ينفرد معلم الموسيقى بروزينا!.. وأخيرا يتركهما لحظة، فيتبادل العاشقان كلمات الحب في سرعة ولهفة!

ويعود فيجارو بعد أن يخفي مفتاح الشرفة من بين حزمة المفاتيح التي أعطاها إياه الطبيب!..

ويبدأ الحلاق مهمته فيغمر وجه الطبيب بالصابون، ثم يحرك الموسى على أنغام الموسيقى الخفيفة المرحة. إلا أنه لا يكاد يمضي في عمله حتى يظهر المعلم بازيليو!

الطبيب: لماذا غادرت منزلك وأنت مصاب بالحمى؟!

ويرتبك بازيليو ولا يدرى بماذا يجيب! ولكن الكونت المتخفي يسرع بإعطائه كيسا مملوءا فيفهم بازيليو كل شيء ويتظاهر بالمرض ثم يتأهب للانصراف بين تمنيات الجميع له بالشفاء العاجل!.. "وداعا أيها السيد، ونوما سعيدا!.." ويمضي فيجارو في حلاقة الذقن متعمدا تحويل نظر الطبيب عن العاشقين!.. فيهمس الكونت لروزينا قائلا:

الكونت: سنحضر عند منتصف الليل تمام لنهرب معا، وما دامت المفاتيح معنا فلن نخاف شيئا!

غير أن الطبيب العجوز يعاوده الشك من جديد، فيأمرهم جميعا بمغادرة الغرفة، وينادي المربية برتا لتوصلهم إلى الباب. ولكن.. كلا! سوف يريهم الطريق بنفسه!

برتا: أي مستشفى للمجاذيب هذا؟!.. إن الحب لوثة من الجنون، ومع ذلك.. فأنا أيضا أحب! ويقبل الليل، فتدوي أركان السماء بعاصفة مزمجرة راعدة..

وفي النهاية يفتح خصاص النافذة، ويتسلق الكونت وفيجارو داخلين روزينا، ولشد ما تكون دهشتهما عندما تصيح بهما:

– أغربا عن وجهي أيها الصعلوكان!.. لقد بلغتما إشاعة مؤداها أن "لندورو" يريد أن يبيعها إلى "الكونت المافيفا"!

فيقترب منها الكونت محاولا تهدئتها وهو يقول لها مفسرا:

الكونت: أنا "المافيفا"، وما "لندورو" إلا مجرد اسم!

وإذ يتعانق العاشقان يصيح بهما الحلاق:

فيجارو: أسرعا لئلا يسمعنا أحد ويقف في طريقنا!

وعندما يهم الثلاثة بالنزول من النافذة يتفقدون السلم فإذا به قد اختفى! وفيما هم في حيرة من أمرهم يظهر بازيليو من بعيد ومعه الكاتب الذي أمر الطبيب بإحضاره ليكتب عقد زواجه من روزينا! إلا أن الكونت وفيجارو يعترضان طريقهما ويحملان الكاتب على توقيع عقد الزواج بين الكونت ورزينا!

الكونت: هاك خاتم ثمين إذا أتممت زواجنا، ورصاصة في رأسك إذا رفضت!

وفي النهاية يتم عقد الزواج بين الحبيبين!.. ويعود الطبيب ومعه ضابط للقبض على المشاغبين!... إلا أنهما وصلا متأخرين! فإن إزالة السلم من تحت النافذة لم يمنع العاشقين من تحقيق رغبتهما!.. وأخيرا يهدأ غضب الطبيب الجشع عندما تتنازل له روزينا عن جانب من ثروتها الدسمة!

ستار

مدام بترفلاي .. جياكومو بوتشيني

Giacomo Puccini MADAME BUTTERFLY

«مدام بتفلاي» مأساة غنائية في ثلاثة فصول تقوم على المسرحية الأمريكية التي تحمل نفس السم، والتي كتبها «دافييد بيلاسكو» David Belasco و«جون لوثر لونج» John Luther Long. وقد نظم كلمات الأوبرا بالإيطالية «جيوسيبي جياكوزا» Giuseppe Giacosa و«لويجي اليكا» Luigi Illica، ووضع ألحانها الموسيقي الإيطالي المعروف «جياكومو بوتشيني» Giacomo Puccini وقدمت لأول مرة على مسرح «سكالا» La Scala بميلانو في ١٧ فبراير عام ١٩٠٤.

شخصيات الأوبرا:

بنكرتون: ملازم بالبحرية الأمريكية	Pinkerton
جورو: سمسار زواج ياباني	Goro
شاربلس: قنصل أمريكا في اليابان	Sharpless
مدام بتفلاي (أو تشوتشوسان)	Mad. Butterfly
سوزوكي: خادمتها	Suzuki

ياmadوري: نبيل ياباني Yamadori

الكاهن: عم مدام بتر فلاي The Bonze

كيت بنكرتون: زوجة بنكرتون الأمريكية K. Pinkerton

زمن الأوبرا: العصر الحاضر

المكان: مدينة «ناجاساكي» باليابان

الفصل الأول

المنظر - فيلا تطل على حديقة

عندما وجد «بنكرتون» الضابط بالبحرية الأمريكية أن سفينة ستبقى راسية بمياه اليابان بضعة أشهر، فكر في الزواج المؤقت من إحدى اليابانيات. وهو الآن بصحبة السمسار «جورو» الذي عثر له على زوجة مناسبة، والذي يؤكد له أنه يستطيع ترك زوجته وقتما يشاء، وأنه ملزم بها فقط طالما هو مقيم معها.

إلا أن «تشوتشوسان» الفتاة اليابانية التي قبلت الزواج من الضابط الأمريكي قد وقعت في هواه، وباتت تحلم بأنها ستمضي معه بقية حياتها في زواج دائم سعيد. وقد بلغ من شدة تعلقها بالضابط أن نبذت دين أهلها ومعتقداتهم. و«جورو» الآن يعرض على «بنكرتون» المنزل الذي سيقيم فيه مع الفتاة اليابانية التي اختارها له.

جورو: لقد أعددت كل شيء. وسوف يصل أقارب العروس بعد قليل.

وهنا يقبل «شاربلس» – قنصل أمريكا في اليابان – فيخبره بنكرتون بأنه يستطيع إلغاء عقد المنزل والزواج في أية لحظة! ولكن هذا الاستخفاف يصدم القنصل الأمريكي فيقول للضابط أن الفتاة ذهبت إليه بمقر

القنصلية في هذا الشأن، وأنه تأثر كثيرا من بساطتها وإخلاصها وثقتها المطلقة في جدية الزواج.

القنصل: إن حديثها كان ينم عن إخلاص عميق!

وعبثا يحاول أن يثني الضابط عن إتمام الزواج، وفي هذه اللحظة يظهر «جورو» وهو يلهث معلنا وصول العروس «تشوتشوسان» (مدام بترفلاي) وصديقاتها.

فيختبئ القنصل والضابط ليرقبا وصولها. وتتقدم الفتاة اليابانية وهي تغني في نشوة: «إنني أسعد فتاة في اليابان، بل في العالم بأسره..» وهنا يظهر الرجلان فيسألانها عن نفسها وحياتها. فتجيب في صراحة متناهية:

بترفلاي: كان أهلي فيما مضى من الأثرياء، ولكن والدي توفى وأصبحت والدتي في فقر مدقع ذليل. فاضطررت إلى كسب قوتي من الرقص والغناء. وليس عندي سوى عم واحد وهو من رجال الدين..

ويقبل مسجل العقود وأقارب بترفلاي فتقدمهم للقنصل والضابط. ويهمس القنصل للضابط محذرا:

– إن الفتاة تثق فيك، فكن على حذر!

ولا تكاد مراسيم الزواج تتم حتى يقطع الاحتفال صوت رجل متقدم في السن يصيح في ثورة حانقة.. إنه الكاهن عم بترفلاي الذي جاء ليعنفها على فعلتها:

الكاهن: ماذا كنت تفعلين في «الإرسالية» الأمريكية؟

ثم يعلن للمحتفلين صائحا:

– لقد تخلت عن دينها القويم ونبذتنا. ولذلك فإننا سننبذها جميعا!

ويغادر الكاهن المكان، فيمضي من ورائه جورو والأقارب والأصدقاء والقنصل، ولا يبقى في المنزل سوى الضابط وعروسه بترفلاي. ويجلس العروسان يرميان إلى الشمس الغاربة التي أوشكت أن تختفي وراء الأفق. ويهيج منظر الغروب مشاعر بترفلاي فتبوح لزوجها بحبها الدفين.

وهنا تعزف الموسيقى لحنا صارخا يذكرها بلعنة عمها الكاهن فيتملكها الخوف وتفضي إلى زوجها بمكنون قلبها. وإذ يحاول الزوج أن يستجيب لها تصرح له بأنها طالما ترددت في الزواج من رجل أجنبي، ثم تتوسل إليه أن يبادلها الحب وتسأله خائفة:

بترفلاي: يقولون أن الرجل في بلادكم إذا صاد فراشة (بترفلاي) فإنه يقتلها بإبرة!

ومرة أخرى تعزف الموسيقى اللحن الصاخب فيذكرها بلعنة عمها الكاهن فترتعد من الخوف. ويحاول بنكرتون أن يهدئ من روعها ثم ينخرط معها في غناء هادئ نشوان: «الليل يحيط بنا والعالم كله يتأهب للرقاد...»

الفصل الثاني

المنظر - داخل منزل مدام بترفلاي

انقضت ثلاث سنوات منذ أن غادر بنكرتون اليابان وانقطعت أخباره عن زوجته اليابانية. ومع ذلك فإن مدام بترفلاي لا تزال تثق فيه وتعتقد أنه سيعود لها مرة أخرى. وإذ تحاول خادمتها المخلصة «سوزوكي» إقناعها بأن لا فائدة من انتظار الزوج لن يعود، تشرع بترفلاي قي غناء هائم مشجي، وتحلم باليوم المجهول الذي قد يعود لها فيه زوجها الغائب: «ذات يوم رائع بهيج سنلمح وراء الأفق سفينة بعيدة مقبلة يتصاعد دخانها عاليا في السماء..» ولا تكاد تفرغ من الغناء حتى يدخل القنصل «شاربلس» ومعه السمسار «جورو». وتبتهج بترفلاي عندما تعلم أن القنصل يحمل رسالة من زوجها. ولكنها لا تعلم أن الرسالة تحوى نبأ زواج بنكتون من زوجة أمريكية!

ولا يدري القنصل كيف يصارحها بالحقيقة المؤلمة التي يعرف تمام أن فيها القضاء عليها. أما جورو فيعرض عليها الزواج من نبيل ياباني يدعى «يامادوري» أحضره معه لذلك الغرض. وإذ يطلب النبيل يدها ترده الزوجة الحزينة خائبة:

بترفلاي: إن يدي تخص شخصا آخر!

جورو: ولكن هجر الزوجة معناه الطلاق

بترفلاي: قد يكون ذلك صحيحا في اليابان، ولكني أمريكية!..

وأخيرا تنهض غاضبة وتطرد السمسار والنبيل الياباني ثم تستدير إلى القنصل الأمريكي وتتوسل إليه أن يقرأ عليها الخطاب. ولكن القنصل لا يجد الشجاعة الكافية ليفضي إليها بالخبر الأليم. فيقترح عليها أن تقبل الزواج من «يامادوري». ولا تقوى بترفلاي على سماع هذا الاقتراح، فتغادر الغرفة مسرعة ثم تعود وقد حملت على ذراعيها طفلا صغيرا.

القنصل: هل هذا ابنه؟

بترفلاي: وهل رأيت من قبل يابانيا أزرق العينين؟

ويدرك القنصل قسوة مواجهتها بالحقيقة فيستأذن في الانصراف واعدا بأن يخبر بنكرتون بأنه أنجب منها طفلا.

وهنا تسمع طلقة مدفع قادمة من تجاه الميناء. فتخرج بترفلاي وخادمتها سوزوكي مسرعتين إلى الشرفة. ولشد ما تكون فرحتها عندما تلمحان من بعيد سفينة بنكرتون وحالما تتعالى الموسيقى بلحن أغنية بترفلاي التي مطلعها: «ذات يوم رائع بهيج سنلمح وراء الأفق سفينة بعيدة مقبلة يتصاعد دخانها عاليا في السماء..»

وفي فورة النشوة والانفعال تأمر بترفلاي خادمتها بتزيين المنزل بالأزهار وتنشد مبتهجة: «انثري البنفسج هنا وهناك وامتلئ بالورد كل مكان...» وإذ تفرغ من الغناء تطلب من خادمتها قائلة:

– زيني لي وجهي بقليل من المساحيق، واحضري لي ثوب عرسي!

وتغمر عتمة الليل السماء، ويغلب النعاس الطفل الصغير والخادمة فينصرفان للنوم، في حين تبقى بترفلاي ساهرة تفكر وتنتظر.. دون أن تعلم إلى متى يطول بها الانتظار!

الفصل الثالث

المنظر - نفس المنظر السابق

ترفع الستار عن الفصل الأخير، فإذا بالغرفة غارقة في نور الفجر، وإذا بمدام بترفلاي لا تبصر أمامها سوى نور الأمل.. فقد أتى النهار ولم يأت معه زوجها الغائب!

وتستيقظ «سوزوكي» فتتوسل إلى سيدتها المتعبة أن تخلد إلى الراحة، وتستجيب مدام بترفلاي إلى طلب خادمتها وهي تقول:

– سأذهب لأنام كي يبدو وجهي جميلا عندما يعود!

ولا تكاد تخرج حتى يسمع قرع على الباب. وتسرع سوزوكي لتفتحه فترى أمامها القنصل ومعه بنكرتون! ثم تلمح سيدة أجنبية في الحديقة فتسألهما:

– من تكون تلك السيدة؟.

لقد أحضر بنكرتون معه زوجته الأمريكية لتأخذ الطفل وتعنى به!

وتشرع الخادمة تحدث بنكرتون عن حب سيدتها له وثقتها فيه وتفانيها في الإخلاص له، فتنتابه نوبة من الندم ووخز الضمير. وتغادر الخادمة الغرفة، فيشرد بنكرتون مع ذكرياته، وتمر أمامه صور ماضية مع

بترفلاي في شكل حلم رائع نشوان، فيغمره الأسى ويغني: «وداعا أيها المنزل السعيد وداعا يا مهد غرامي..» ولكنه لا يقوى طويلا على البقاء في ذلك المنزل الذي تطارده فيه صور الماضي، فيغادره في يأس موجع مرير. وبعد قليل تدخل «كيت بنكرتون» - زوجته الأمريكية - ومعها الخادمة سوزوكي.

كيت بنكرتون: هل لك أن تخبريها بأن تثق بي في العناية بالطفل؟

سوزوكي: نعم!

وهنا يسمع نداء بترفلاي. وعبثا يحاول الجميع صرفها عن الدخول. فحالما تظهر أمامهم لتواجه لأول مرة الزوجة الأمريكية!

بترفلاي: من عساها تكون تلك السيدة؟

ويترفق بها القنصل والخادمة ويخبرانها بأنها زوجة بنكرتون وبأنها جاءت لتعنى بالطفل.

وتتمالك بترفلاي شعورها فتهنئ الزوجة الأمريكية بزواجها، وتخبرها بأن الطفل سيكون معدا بعد نصف ساعة، ثم تقول لها:

- سأعطي بنكرتون طفله إذا ما جاء ليأخذه بنفسه!

وينصرف الجميع، فتبقى بترفلاي في حزن غامر أليم. وبعد برهة يفتح الباب وتدخل منه الخادمة وقد حملت الطفل الصغير. فتقترب منه بترفلاي وتغني له أغنية حزينة يتساقط منها الأسى.. أنها أغنية الوداع: «ابني العزيز يا من منحتني إياك السماء من جنتها الخالدة..» ثم تغطي الطفل في حنان زائد بوشاح أبيض رقيق، وتتوارى خلف ستار النافذة.

ويعود بنكرتون وزوجته والقنصل في الموعد المحدد لاستلام الطفل، فيجدون مدام بترفلاي جثة هامدة على الأرض وبجوارها خنجر نقش عليه: «إذا لم تستطع أن تعيش كريما، فمت كريما»!

ستار

الفهرس